الجامعة الأردنية
كلية الدراسات العليا

روايات صنع الله ابراهيم

دراسة تحليلية

فراس عصنام يوسف عبيد

إشراف

الأستاذ الدكتور ابراهيم السعافين

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها بكلية الدراسات العليا في الجامعة الأردنية.

نيسان / ١٩٩٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نوقشت هذه الرسالة بتاريخ ٢ / ٤ / ١٩٩٥، وأجيزت

أعضاء اللجنة		التوقيع
١- الأستاذ الدكتور إبراهيم السعافين	(مشرفاً)	.....
٢- الدكتور سميـــــر قطامـــي	(عضواً)	.....
٣- الدكتور صـــلاح جـــرار	(عضواً)	.....

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إهـــداء

إلى

والدَيَّ

إخوتي، أقربائي، أصحابي

الإنسانية الإيجابية

الإنتفاضة الفلسطينية ١٩٨٧-١٩٩٣

ودعاة التحول الديمقراطي في الحياة العربية

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شكر وتقدير

أقدم الشكر الجزيل والتقدير البالغ للأستاذ الدكتور إبراهيم السعافين مشرف الرسالة لتقديسه حرية التفكير. ولما خصني به من اهتمام وجهد استثنائيين طوال عامين، حيث لم يكن للبحث أن يخرج بصورته الحالية لولا دوره. لك مني كل عرفان بالجميل أيها العالم، الأب، الإنسان، الصديق.

كما أقدم بالغ الشكر والتقدير للدكتور سمير قطامي والدكتور صلاح جرار لما أبدياه من ملاحظات قيمة كان لها إسهامها الفعّال في إثراء البحث وتعميقه.

ولايفوتني التقدم ببالغ الشكر والتقدير لمعالي الأستاذ الدكتور أمين محمود رئيس جامعة الزيتونة الأردنية (خالي) الذي قدم لي كل دعمٍ مادي ومعنوي ممكنين طوال فترة البحث، كذلك الأستاذ يوسف محمود خالي الآخر.

كذلك لا أنسى التقدم بالشكر للروائي الكبير صنع الله ابراهيم على تعاونه معي في ما طلبت من مواد معلوماتية ولغوية (نقدية).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قائمة المحتويات

الموضوع	الصفحة
قرار لجنة المناقشة	ب
الإهـــــــداء	ج
شكـــر وتقديـــر	د
قائمة المحتويات	هـ
قائمة الأشكال	ح
الملخـــــــص باللغة العربية	ط
مدخل منهجي الى الدراسة	١
– المقدمة	٢
– منهجية البحث "سوسيولوجيا النص الروائي"	٤
– صورة الرواية المصرية في الستينيات	٥
– صنع الله إبراهيم – السيرة	٨
– ثقافة	١٠
الفصل الأول: "تلك الرائحة" أو الحقيقة / الزيف في تجربة المجتمع المصري	١٢
– ملخص للرواية	١٣
– فكرة الرواية	١٤
– البناء الفني – الحبكة والأحداث	١٦
– الشخصيات	١٨
– الأسلوب	٢١
– هل هي رواية؟	٢٣
– البنية الدلالية: الحقيقة/ الزيف في تجربة المجتمع المصري	٢٣
– محاور الدلالة الروائية	٢٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تابع قائمة المحتويات

الموضوع	الصفحة
الفصل الثاني : "نجمة أغسطس" أو التقدم الاجتماعي غير قابلٍ للتجزؤ	٣٢
– فكرة الرواية	٣٣
– البناء الفني – الحبكة والأحداث	٣٤
– الشخصيات	٣٨
– الأسلوب	٤٠
– البنية الدلالية: – التقدم الاجتماعي غير قابل للتجزؤ	٤١
– قراءة التجاور	٤٣
– السد في علاقة بناء اجتماعي شامل	٤٥
– معارضة انتماء عميق	٥٢
الفصل الثالث : "اللجنة" أو بنية عجز تاريخي	٥٤
– فكرة الرواية	٥٥
– البناء الفني – الحبكة والأحداث	٥٧
– الشخصيات	٥٨
– البنية الدلالية: بنية عجز تاريخي داخلي	٦٣
– تقاطب ثنائي: الأنا السارد/اللجنة (علاقة سلطة شاملة).	٦٣
– كوكا كولا- رمز وعلامة	٦٦
– حياد زائف	٦٨
– نحو انفصال موقعين	٧٠
– إيديولوجيا الرواية	٧١
الفصل الرابع : "بيروت بيروت" أو ثروة الذات/ثروة الآخر(بنية نشطّي المجتمع)	٧٥
– ملخص للرواية	٧٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تابع قائمة المحتويات

الموضوع	الصفحة
- فكرة الرواية	٧٦
- البناء الفني - الحبكة والأحداث	٧٦
- الشخصيات	٧٨
- الأسلوب	٨٢
- البنية الدلالية: ثروة الذات / ثروة الآخر	٨٣
الفصل الخامس : "ذات" أو عجز مستمر للمجتمع والدولة	٨٧
- ملخص للرواية	٨٨
- فكرة الرواية	٨٩
- البناء الفني	٩٢
- الشخصيات	٩٤
- الأسلوب	٩٦
- البنية الدلالية - حضور الشكل- حضور النسق	٩٩
- مشهد التقابل	١١٢
- الاتهام لا يستثني أحداً	١١٣
- الوثيقة: منطق وحدود	١١٨
- النهاية وأبعاد إنسانية	١٢٠
الخاتمة	١٢٥
* **المصادر والمراجع**	١٣٠
* **الملخص باللغة الإنجليزية**	١٣٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قائمة الأشكال

الموضوع	الصفحة
١- مخطط توضيحي لإيديولوجيا الرواية في "نجمة أغسطس"	٥٣
٢- مخطط توضيحي لبنية الدلالة الكلية في رواية "ذات"	١٢٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الملخص

روايات صنع الله ابراهيم

دراسة تحليلية

فراس عصام يوسف عبيد

إشراف

الأستاذ الدكتور ابراهيم السعافين

هذا البحث تطبيق لمنهجية "سوسيولوجيا النص الروائي" على الروايات الخمس لصنع الله إبراهيم (مصر) كانت المهمة الأساسية فيه تحديد علاقات التركيب الروائي وآلية ترابطها ثم فهم إيديولوجية الروايات. وقد أظهرت الخطوات السابقة نسقاً صراعياً واحداً يتكرر في أربع روايات من خمس: هو الدولة الوطنية/ المجتمع المدني- حيث تُغيّب الدولة البعد الديمقراطي في نموذجها السلطوي وتفشل في إنتاج اقتصاد صناعي متقدم يضاهي الاقتصاد الصناعي المتقدم في الدولة الغربية مما يعني استمرار تدني الدخل الفردي في المجتمع المصري واستمرار التراجع الكبير في المستوى الحضاري العام، وينعكس الاختلال الكلي السابق على الفرد المصري إحباطا وإرهاقا شاملين يؤثران سلبا على مشاعره تجاه الحياة وقدرته العطائية، وأظهر تحليل الروايات السابقة كذلك دورا سلبياً يقوم به المجتمع المدني باستمرار تبنيه قيما ثقافية متخلفة تمنع تطور التفكير باتجاه علمي وتحد من الحرية الاجتماعية للفرد باعتباره كائنا.

وفي رواية بيروت بيروت أفضت منهجية البحث المتبعة في تحليل بنية الرواية إلى وضع مسؤولية الحرب الأهلية على التفكير الفئوي الانقسامي لفئات المجتمع الواحد على أساس مصلحي اقتصادي يتم تمويهه على أساس مزيف (طائفي).

ورصد البحث العناصر التجريبية في وسائل التشكيل السردي ثم بيّن وظيفتها الدلالية فكان أهمها: تقنية السرد متعدد المستويات، الوثيقة، أسلوب الدقة والكثافة- حيث مكنت الأدوات السابقة (كما توصل البحث) الكاتب من كشف التداخلات المعقدة للصراع الإنساني.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مقدمـــة

يعد صنع الله إبراهيـم من ألمع الروائيين العرب في الحقبة الأخيرة من هذا القرن، إذ كفلت له تجربته الروائية المتطـوّرة على صعيد الشكل والمضمون حضوراً بارزاً في الرواية العربية المعاصرة، وهي تجربة أفادت من تماسه مع الحياة والواقع ولـم تنقطع عنهما، ممّا جعل لتجريبه المستمر مذاقاً خاصاً.

فتقنياته المتنوعة مكنته من تشكيل رؤيته المتجدّدة فـي كل عمل يبدعه، لذا فقد اخترت هذا الروائي المبدع نافذ البصيرة ليكون موضوعاً لأطروحتي لعلي أستطيع الكشف عن سرّ هذا التفوق الذي يتجلى في أعماله أو الذي يظهر في المكانة المرموقة التي يتبوأها.

ولقد اهتديت في هذا البحث بالمنهج الذي يتبنى سوسيولوجيا النص الروائي، وهو منهج يحاول دراسة بنية النص الروائي وربطها بسياقها التاريخي والإجتماعي في آن معاً، باعتبار النص منتجاً تاريخياً ذا أبعاد اجتماعية تتفاعل بحيوية في لغة النص نفسه وبها.

وإذا كان صنع الله ابراهيم قد نال مكانة ممتازة فإنّ ما يبعث على العجب أنّه لم ينل عناية الدارسين والباحثين على النحو المطلوب. فثمة مقالات ودراسات محدودة تناولت أدبه تناولاً محدوداً أو جزئياً، باستثناء دراسة محمود أمين العالم الذي تناول فيها رواياته الثلاث الأولى ضمن الحدود التي سمح له فيها منهجه في الدراسة.

وقام منهج البحث على مدخل وخمسة فصول.

يتناول المدخل منهج الدراسة، وصورة عامة لملامح الرواية المصرية في الستينات مثلما تعرض لحياة صنع الله ابراهيم وثقافته.

وخُصصت الفصل الأول للحديث عن الحقيقة والزيف في تجربة المجتمع المصري في رواية تلك الرائحة.

وخصصت الفصل الثاني للحديث عن التقدم الاجتماعي غير القابل للتجزؤ في رواية نجمة أغسطس.

وأفردت الفصل الثالث للحديث عن بنية عجز تاريخي في رواية اللجنة .

واستقل الفصل الرابع بالحديث عن بنية تشظي المجتمع في رواية بيروت بيروت.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واستقل الفصل الخامس بالحديث عن عجز مستمر للمجتمع والدولة في رواية ذات .

وتحاول الخاتمة أن تلم بأهم النتائج، وأن تشير إلى ملامح التطور في أدب صنع الله في الرؤية والتشكيل.

ومهما يكن، فقد حاولت أن أبذل جهدي في تحليل الروايات المدروسة، والإفادة من كل ما يتصل بها من مقالات ودراسات وأبحاث، آملاً أن أكون حققت ما توخيت تحقيقه..

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

منهج الدراسة

اعتمد هذا البحث على أحد تطبيقات البنيوية في معالجة النصوص الروائية هو "سوسيولوجيا النص الروائي" الذي ارتبط باسم الناقد "بيير زيما" ومثل تتويجا لجهود الناقد الكبير باختين ولجهود لوسيان غولدمان منظر "البنيوية التكوينية".

وينطلق هذا المنهج من الأسس التالية:

١- النص الأدبي وحدات بنائية يربطها نظام عام يميز النص الأدبي يسمى شكل العمل الأدبي هو أساس الدلالة الكلية في فهم هذا النص. هذا التصور تطبيق آلي للفكرة الأساسية في النظرية المعرفية البنيوية في مجال النقد الأدبي. (١)

٢- النص الأدبي دلالة اجتماعية تاريخية تؤخذ من النص ذاته ثم تعقد المقارنة بينها وبين البنية الاجتماعية المتحققة في الواقع من أجل فهم أبعاد التناظر بين البنية الاجتماعية التاريخية في النص الأدبي ونظيرتها الحقيقية ومدى التقاء الاثنتين. أي أن اللغة باعتبارها دلائل مركبة في نسق معين هي في الوقت نفسه إيديولوجيا كما أنها بالضرورة تجسيد مادي للتواصل الاجتماعي(٢) ، ولذلك فدراسة الدلائل اللغوية تعني في الوقت نفسه التعامل مع العلاقات الاجتماعية والاقتصادية ومع الإيديولوجيات الموجودة في الواقع (٣).

٣- إن الرواية إذ تمثل شكلا حاملا لإيديولوجيتين متصارعتين أو أكثر تحمل إيديولوجية خاصة بها تحدد موقفها من الايديولوجيات المتصارعة ومن الواقع. يقول بييرزيما: "إنه من الواضح إذا بأن الكتابة الخيالية، بعيدة عن أن تكون ذات صلة بلغة "محايدة" تستخدمها أثناء ابتكار تقنيات جديدة، فإنها على عكس ذلك تتطور داخل وضعية سوسيولسانية، متخذة موقفا مع أوضد بعض السوسيولهجات." (٤)

---

(١) د. نبيله إبراهيم، فن القص في النظرية والتطبيق، ط١، مكتبة غريب، القاهرة، ١٩٩٠، ص٢١.

(2) Mikhail Bakhtine: Le Marxisime et la philosophie du langage. Ed. Minuit. 1977. P.25.

(3) Ibid., P 35-36.

(4) Pierre. V. Zima : L'ambivalance romanesque. (Proust. Kafka. Musil). Le sycomore. Paris. 1980. P. 50.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إن ما يتميز به المنهج السابق عن غيره من مناهج دراسة الرواية هو نظرية الدلالة المتكاملة التي يمكنها أن تحدد "مفهوم المعنى" في علاقته بالمستوى النصي الروائي، أي التركيبي والدلالي. والتكامل السابق لم يتحقق في منهج لوسيان غولدمان "البنيوي التكويني" لأنه يقول بأولوية دراسة النص الأدبي من داخله (بنيته) دون أن يحدد الوسائل القادرة على تحقيق ذلك إذ يؤسس نقداً للرواية يربط بنية العمل بالإيديولوجية الماركسية فلا يمكن بذلك التعامل مع النص باعتباره بنية مستقلة (١).

وقد سد منهج سوسيولوجيا النص الروائي كذلك الثغرة الوحيدة في طروحات باختين النقدية عن الرواية وهي اعتبار الرواية محايدة أي خالية من إيديولوجية موجّهة أوغائية، فالنص ليس إلا مشروعا إيديولوجيا للكاتب ينجزه بصراع إيدولوجي متساوٍ يكون فيه أحد طرفيه أو أطرافه. فالكاتب كائن اجتماعي، أي موقع إيديولوجي بالضرورة.

* * *

وإذن. اعتمدت هذه الدراسة أسس منهج سوسيولوجيا النص الروائي لتحصيل البنية الداخلية للنص – بحمولتها الاجتماعية التاريخية – متجنبة فهما للنص من خارجه ورابطة النص بسياقه المرجعي الإنتاجي التاريخي في آخر خطوة نقدية لا أول خطوة نقدية.

كذلك ناقش البحث البناء الفني في الروايات المدروسة باعتبار هذا البناء يتمتع باستقلالية نسبية ويمثل جزءًا اساسيا من بنية النص الروائي ...

صورة الرواية المصرية في الستينيات

ينتمي صنع الله إبراهيم إلى جيل الستينات في الرواية العربية والمصرية وهو الجيل الذي برز منه في مصر صنع الله إبراهيم وبهاء طاهر وإبراهيم أصلان وجمال الغيطاني ويحيى الطاهر عبدالله وعبدالحكيم قاسم ومحمد مستجاب ... حيث كانت

(١) د. حميد الحمداني، النقد الروائي والإيديولوجيا، ط١، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٠، ص٧٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأزمات الكبرى لمجتمع ثورة يوليو ١٩٥٢ ودولتها الموضوع الأساسي لرواية الستينات في مصر، هذه الأزمات التي تمثلت في غياب البعد الديمقراطي وتبني اقتصاد اشتراكي متعثر وهزيمة ١٩٦٧ العسكرية أمام اسرائيل. فما نحن أمامه هو رواية معارضة وتحليل متعدد المستويات للمجتمع المصري في المرحلة الناصرية.

يقول صنع الله إبراهيم نفسه في شهادة روائية له(١) عن رواية الستينات:

" لقد تقدمت القيادة الفتية للبرجوازية بمشروع قومي طموح للمستقبل، قوامه الاستقلال الوطني والوحدة والتنمية القائمة على التصنيع والعدالة الاجتماعية. وكان من الطبيعي أن تجتمع في هذه النهضة العارمة مجموعة من التناقضات الفريدة على مستويات متعددة، منها ما بدا شديد الالتباس، فالعمال، على سبيل المثال، يشاركون في إدارة المشروعات بينما القهر البوليسي الذي تطلبه الصراع الضاري ضد الاستعمار والرجعية يطول أيضا من يجرؤ على الاختلاف أو المشاركة. شيئاً فشيئا بدا الواقع أكثر تعقيدا من مجرد أغنية للنضال ضد الاستعمار ومن أجل المستقبل وسادت المجتمع حالة من الاستلاب... في هذا الجو جاءت أولى خطواتي في الكتابة."

وعلى المستويين الموضوعي والفني كانت رواية الستينيات في مصر والعالم العربي تطويرا مهماً لما كانت عليه الرواية العربية في الخمسينات العقد الذي برز فيه النموذج الروائي الواقعي العربي باتجاهاته المختلفة على نحو ما نرى في الثلاثية لنجيب محفوظ ١٩٥٦، والأرض لعبد الرحمن الشرقاوي ١٩٥٤، والحرام ليوسف إدريس ١٩٥٩، والمصابيح الزرق لحنا مينا ١٩٥٤،...

لقد كان الإنجاز الكبير لرواية الستينات في مصر والعالم العربي قدرتها على رؤية الواقع بعمق تتضح فيه القدرة على الإقناع والتأثير، ويستند إلى منظور الكاتب الفردي للواقع. وهذه الرؤيا لا تنفصل عن الشكل في الرواية، إذ أن نجاح الرؤية يرجع إلى نجاح الشكل الذي جسّدها. إن الرؤية تتجلى في الشكل. ومهم أن يُفهم نجاح (الشكل) وتفوقه على أساس إنطلاق عملية التشكيل من الذات الفردية المبدعة، أي خارج التوجيه

---

(١) صنع الله إبراهيم، شهادة، فصول، مج ١١، ع٣، ١٩٩٢، ص١٧٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الإيديولوجي والفني المسبقين، وعلى العكس من ذلك إعطاء المبدع نفسَه الحرية الكاملة في التشكيل الإيدولوجي والفني فهو ذو صلاحية خلق وتجديد.*

وتبين شهادات روائيي الستينات عن تجاربهم الإبداعية أنهم كانوا مدركين لعلاقة فن الرواية بالواقع باعتبارها إشكالية ذهنية وفنية تتطلب حلاً عملياً. يقول إدوار الخراط: "الرواية شيء تتوفر له الحرية الكاملة في داخل قوانين يفرضها مضمونها ورؤيتها بنفسه على نفسه، أي أنها تبدع لنفسها حريتها وقانونها معاً"(١) ويقول صنع الله إبراهيم "كل شيء يخضع لما تريد أن تقوله، الأمر ليس متعلقا بالتكنيك وحسب إنما يشمل أساسا وجهة النظر، الرؤية، ما تريد أن تقوله" (٢)

ولا يخفي معظم روائيي الستينات تأثرهم بنجيب محفوظ وأشكاله المتنوعة التي استطاعت الإجابة في وقت مبكر جداً عن سؤال الشكل الروائي والواقع. يقول نجيب: "عندما بدأنا نكتب الرواية كنا نظن أن هناك الشكل الصح والشكل الخطأ، أي أن الشكل الأوروبي للرواية كان مقدسا، بتقدم العمر تجد نظرتك تتغير وأنك تريد أن تتحرر من كل ما فرض عليك، ولكن بطريقة تلقائية وطبيعية وليس لمجرد الخروج أو كسر الشكل عمداً، تجد نفسك تبحث عن النغمة التي تستخرجها من أعماقك أيا كانت هذه النغمة..."(٣)

ولقد نجحت رواية الستينيات العربية والمصرية لأنها أدركت التحام الشكل بالرؤية (هما شيء واحد)، ولأن رؤيتها جعلت كل ما في عالم الإنسان قابلا للنقاش. ومثّلت الاستجابات الإبداعية في الستينات أمام تحدي واقعها الاجتماعي الذي يعيش أزماته

---

* في السياق السابق يتحدث د. محمد بدوي في كتابه "الرواية الجديدة في مصر: دراسة في التشكيل والإيديولوجيا" عن كشف النصوص الروائية لكتاب الستينات عن وعي عميق بتعقيد الواقع الاجتماعي وتشابك علاقاته. فالعلاقة بين الرواية الستينية، ومنتجها، وبين الواقع، تنطوي على حس قوي، بأن الواقع ليس بسيطا، يمكن رده إلى قوالب جاهزة سابقة على إنتاجه من خلال الأدب. وإنما تنطوي على جدلية نجمت عن واقع معقد من ناحية، وإرهاف الكاتب لأدواته وصقلها من ناحية أخرى.
د. محمد بدوي، الرواية الجديدة في مصر. دراسة في التشكيل والإيديولوجيا، ط١، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٣، ص٢٤٢.

(١) إدوار الخراط، أنا والطابو، فصول، مج ١١، ع٣، ١٩٩٢، ص٤٣.

(٢) صنع الله ابراهيم، تجربتي الروائية، الآداب، ع٢/٣، ١٩٨٠، ص١٠٣.

(٣) جمال الغيطاني، نجيب محفوظ يتذكر، ط١، دار أخبار اليوم، القاهرة، ١٩٨٧، ص١٠٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخاصة شديدة التعقيد علامات لا لبس فيها على "تجريب" صادر عن طبيعته فقط حيث تمكنت تلك الطبيعة من خلق رواية ناجحة شكليا ومنفتحة تقنيا إلى أبعد حد، إذ تعمل التقنية على تجسيد الشكل في أحسن صورة له. يقول د. إبراهيم السعافين "الرواية الغربية والعربية كلتاهما شكل غير منجز وكلتاهما يجرب، وجدارة التجريب تكمن في قيمته وفي طبيعته وفي استجابته لحاجات فنية جوهرية" (١). إن ما يقيد الشكل الروائي بلغة أخرى هو تماسكه الإبداعي فقط وهو التماسك الذي يمكّنه من تفسير الواقع التاريخي وإعادة بنائه. ومن الأهمية بمكان التنبيه إلى سيطرة أسس رواية الستينيات على الرواية العربية والمصرية حتى يومنا هذا إذ يستمر التشكيل الروائي دون سيطرة الإيديولوجيا فيه سيطرة شبه كاملة، أي دون تبني رؤية واضحة وشبه ثابتة للكون والعالم والإنسان فيما هو مفهوم "الحداثة" بعينه، وهو الذي يجعل مؤلفي الرواية العربية الجديدة مدركين لمهمتهم باعتبارها مهمة التعبير عن "الأنا" الداخلية للفنان الذي يخلق نموذج العالم وفقا لرؤيته الفردية. (٢)

صنع الله إبراهيم- سيرة ذاتية

ولد الروائي المصري صنع الله إبراهيم عام ١٩٣٧ في القاهرة، ودرس في مدارسها إلى أن التحق عام ١٩٥٢ بالسنة الجامعية الأولى في كلية حقوق جامعة القاهرة التي درس فيها سنة واحدة ثم تركها لانخراطه في العمل الصحفي والنشاط السياسي. كان صنع الله عضواً نشطا في حركة ماركسية مصرية، هي الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني "حدتو" التي اضطلعت بدور بارز في مقاومة الإنجليز والنظام الملكي قبل ١٩٥٢. وبمجيء ثورة يوليو الوطنية عام ١٩٥٢ لم تكن حدتو لتتعارض مع الحكم الناصري لولا اعتقال عمال مصنع كفر الدوار وإعدامهم في آب ١٩٥٢ لإضرابهم ومطالبتهم بزيادة أجورهم ولولا استمرار الحكم الناصري* على منهجية اقتصاد

---

(١) د. إبراهيم السعافين، نظرية الأدب ومغامرة التجريب، ط١، دار الشرق العربية، القدس، ١٩٩٣، ص١١٦.

(٢) فاليريا كيربيتشنكو، الرواية المصرية بعد الستينيات، فصول، مج ١٢، ع١، ١٩٩٣، ص١٦١.

* كان اثنان من أعضاء مجلس قيادة الثورة عضوين في "حدتو" هما خالد محيي الدين وأحمد فؤاد. د. سماح إدريس، المثقف العربي والسلطة : بحث في روايات التجربة الناصرية، ط١، دار الآداب، بيروت، ١٩٩٢، ص٥٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رأسمالية الدولة دون الاقتصاد الاشتراكي الكامل (١) ، ومع ذلك ظلت "حدتو" تقول بوجود مجموعة اشتراكية أصيلة في سدة الحكم بقيادة عبدالناصر تقود مصر نحو الاشتراكية وعليه فإن الدولة أهل لتأييد الماركسيين. (٢)

اعتقل صنع الله عدة مرات لفترات قصيرة في أعوام الخمسينات، وبمجيء عام ١٩٥٩ جرت حملة الاعتقال الشهيرة لبعض قوى المعارضة بما فيها حدتو ووضعت قياداتها واعضاؤها في السجون حتى عام ١٩٦٤ حيث كان صنع الله إبراهيم من بينهم.

وبعد خروج صنع الله من السجن عمل في حانوت لبيع الكتب الأجنبية تاركا العمل السياسي والارتباط التنظيمي. وفي عام ١٩٦٦ ظهرت روايته (تلك الرائحة) التي صادرتها الرقابة المصرية قبل التوزيع لأنها كانت تنتقد الوضع العام في مصر. وفي عام ١٩٧٤ ظهرت روايته (نجمة أغسطس) تقيّم تجربة الحكم في عهد عبد الناصر وتنتقد البعد غير الديمقراطي فيها. وفي ١٩٨١ ظهرت روايته (اللجنة) تنتقد نهج الانفتاح الساداتي. وفي ١٩٨٤ ظهرت (بيروت بيروت) تحلل الحرب الأهلية اللبنانية تحليلا علميا. وفي ١٩٩٢ ظهرت روايته الأخيرة (ذات) تقدم رؤية شاملة للمجتمع المصري في عقد الثمانينيات. وقد ترجمت رواياته إلى اكثر من لغة.

وضع صنع الله ابراهيم بالإشتراك مع كمال القلش ورؤوف مسعد كتاباً عن السد العالي بعنوان "إنسان السد العالي"، أصدر ترجمة عربية لرواية (العدو) للأميريكي جيمس دروت، منذ عام ١٩٧٧ تزوج وتفرغ للكتابة الروائية وترجم رواية (حمار بوريدان) للألماني جونتر ديبرون التي وجد فيها صورة للحياة التي رآها وعاشها في ألمانيا الشرقية (عاش صنع الله من عام ١٩٦٨ إلى عام ١٩٧١ في ألمانيا الشرقية عاملا في وكالة الأنباء الصحفية الرسمية الألمانية)، وترجم كذلك كتاباً لآرنولد انوخكين عنوانه "معونة أم استعمار جديد؟"، وأصدر عدداً كبيرا من القصص والروايات العلمية للصغار والناشئة، في عام ١٩٩٣ قام بتدريس برنامج عن "الرواية العربية المعاصرة والتجربة الذاتية في الإبداع" لطلاب الدراسات العليا في القسم العربي لجامعة بوردو الفرنسية، وكرر الأمر في السنة التالية مع الجامعة السابقة وجامعة السوربون الجديدة.

---

(١) د.حليم بركات، المجتمع العربي المعاصر، ط٢، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٤، ص٣٠٠، ٣٠١.

(٢) د. سماح إدريس، المثقف العربي والسلطة : بحث في روايات التجربة الناصرية، ط١، دار الآداب، بيروت، ١٩٩٢، ص٥٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عاش صنع الله طفولة مأساوية فقيرة إذ ولد لأب عمره ستون عاما كان موظفا في دائرة حكومية أحيل إلى المعاش ببلوغه الستين وتدهورت حالته المادية إلى حد اضطراره إلى بيع الراديو، واستمر تدهور حالته المادية حتى التحق صنع الله بالجامعة حيث أخذ صنع الله يعتمد على نفسه في كسب المال بتوظيف مهاراته الكتابية واللغوية. وقد عانى صنع الله حرمان حنان الأم التي انفصلت عن زوجها في السنوات الخمس الأولى من عمره بعد إصابتها بمرض عصبي، وهي الزوجة الثانية لوالده، وانقطعت العلاقة بين صنع الله وأمه تماما منذ ذلك الوقت كما يقول هو.

وإذا كان ثمة إيجابيات في طفولة صنع الله فهي وفرة الكتب في بيت والده لاسيما الروايات، وشخصية والده الذي كان "حكّاءً" و"مثقفاً" كما يقول صنع الله*.

ثقافتـــه*

تحققت المساحة الكبرى في قراءات صنع الله في فضاء الثقافة الغربية، فهو يذكر ماركس وفرويد باعتبارهما المرجع الثقافي الأساسي له ويذكر كتابين نقديين عن هيمنجواي يقول بأثر أساسي لهما في مسيرته الروائية أولهما للأمريكي كارلوس بيكر وثانيهما للناقد السوفياتي كاشين أفاد صنع الله من إبرازهما لأدوات هيمنجواي وقواعده في الكتابة : أن يكون النثر واقعيا محددا للغاية ذا أبعاد متعددة، ألا أكتب إلا عما أعرفه جيدا، التركيز والاعتماد على الإيحاءات والترابطات الداخلية للنثر وحذف كل ما هو زائد أي كل ما يمكن الاستغناء عنه. (١)

٤٤٦٧٢٧

وكانت قراءات صنع الله في الرواية العالمية واسعة، فقد قرأ لبعض الأسماء الكبيرة من مثل تشيخوف، وجوركي، وجويس، وبروست، وزولا، وبلزاك، ومحفوظ، ...

وسواء كان تأثير الأسماء الروائية السابقة كبيرا أو غير كبير في مسيرته الروائية فإن ما يعرف عن صنع الله أنه يذكر هيمنجواي كاتبا وحيدا تأثر به وأنه كان ماركسيا غير مؤمن بالواقعية الاشتراكية في الأدب لأنها تزيف الواقع وتزوقه كما يقول(١:١٠٠) ، وأنه

---

* جميع المعلومات الواردة في هذه السيرة الذاتية أرسلها صنع الله ابراهيم إلى الباحث.

* كثير من المعلومات الواردة في الحديث عن ثقافة صنع الله هي من وثائق زود بها الروائي الباحث.

(١) صنع الله ابراهيم، تجربتي الروائية، الاداب، ع ٢-٣ ، ١٩٨٠، ص١٠٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اطلع على آراء الرواية الجديدة وتقنياتها في فرنسا أوائل الستينيات. وبتحليل روايات صنع الله نكتشف تطابق مقولاته السابقة مع معطيات رواياته.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الأول

تلك الرائحة أو الحقيقة / الزيف في تجربة المجتمع المصري

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ملخص لأحداث الرواية*

يُطلق سراح الراوي اليساري من السجن (السياسي) في مصر بعد سنوات من الاعتقال لتفرض عليه إقامة جبرية في منزله من غروب الشمس إلى شروقها. ويتخذ الراوي منزل أخته مكان إقامة مؤقتة ليعاود ممارسة حياته الطبيعية بعد خروجه الى الحرية التي يفتتحها بزيارة زوجة رفيق له في المعتقل استشهد تحت التعذيب، فيحدثها عن زوجها وصموده وتسأله إن كان زوجها يحبها، ثم يأخذ طفلتها الصغيرة إلى المسبح لتلهو. وتزور الراوي صديقة قديمة ليقضي معها وقتاً سعيدا ملأته العاطفة وتخللته مداعبات جسدية دون أن يحدث اتصال جنسي تام – ولا يوضح السرد أسباب عدم حدوث الاتصال الجنسي التام لكنه يدفع إلى الاعتقاد بدور الثقافة الاجتما عية. ونرى الراوي في زيارة لصديق له فلا يجده، وبينا هو جالس ينتظر يعجب بزوجة صديقه "سامية" ويشتهيها فيحاول إشعارها إلا أنه لا يتمكن في نهاية الأمر من الحصول على مبتغاه. ثم يزور الراوي عائلة صديقة حيث تنتقد "نهاد" سياسة الحكومة المصرية إزاء مصادرتها رأسمال والدها وينتقد والد "نهاد" الإشتراكية الروسية ويفضل الرأسمالية ويقول أنه قابل أناساً قادمين من روسيا وأن الفقر هناك شديد. وفي طريق عودة الراوي الى بيته بعد انتهاء زيارته لأسرة نهاد نراه وهو يفكر بالهوة الطبقية بينه وبين أسرة نهاد الثرية. إذ أنه لا يملك أي شيء ولا يعمل؛ حتى أنه يقيم في بيت أخته لا في مكان خاص به. ونرى خطيب أخت الراوي ينتقد السياسة الاقتصادية الحكومية قائلاً أنه ليست أمامه فرصة للثراء لأن الحكومة ستستولي على كل ما يمكن أن يجمعه في حياته. وينتقد صديق للخطيب السياسة العامة للدولة على خلفية تفشي الرشوة في الجهاز الإداري الحكومي، ويظهر من السياق حالة معاناة مادية يعيشها جميع المجتمعين في البيت.

على مدى أيام متتالية يبحث الراوي عن عمل فلا يجد، ويلاحظ في أثناء ركوبه المترو الذي يخترق أحد شوارع القاهرة كآبة في وجوه الركاب وعدم استجابتهم لتلويحات أيدي جنود مصريين عائدين من اليمن في مترو معاكس مما أغضب الجنود. ونرى الراوي يعبث مع بائعة هوى ثم يقوم بجولات في ضواحي القاهرة يستذكر أثناءها ماضيه: طفولته الجميلة وموت والده ثم يزور خالاته معزيا بوفاة أمه التي ماتت في آخر

---

* رواية قصيرة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أيام سجنه (كما يبدو). وينتهي السرد بعودة الراوي الى منزله مسرعاً قبل أن يحين موعد العسكري الذي يحضر لإثبات إقامته الجبرية.

ويتخلل سياق الأحداث السابق انقطاعات سردية لسرد مميز طباعياً يستذكر فيها السارد أيامه في السجن أو ماضيه العائلي وطفولته الجميلة أو يعلق على مواقف حدثت له أو لا تزال تحدث.

فكرة الرواية

يخرج الراوي من السجن الذي أمضى فيه خمس سنوات (١٩٥٩-١٩٦٤) بسبب معارضته السياسية للنظام (١٩٥٢-١٩٧٠)، ليرى الوضع الاجتماعي في مصر بأبعاده الأساسية دون تغير جذري، أي بعد مرور ما يزيد على عشر سنوات على السلطة الوطنية، وتشير مقدمة الرواية إلى الظروف التاريخية التي ولد فيها هذا العمل الروائي وإلى كون العمل نفسه محاولة لبناء موقف واع من الوضع الجديد في مصر -في ظل الحكم الوطني الجديد.

يقوم الراوي بجولات في القاهرة فيحاور نفسه ويجري حوارات مع الآخرين من أجل الوصول إلى حقيقة الوضع العام الذي يعيشه الإنسان في المجتمع الجديد حيث تتحول الدلالات السردية الجزئية إلى دلالة كلية هي سؤال الرواية الكبير: ما قيمة ثورة يوليو الوطنية الحقيقية ومجتمعها إذا لم يختلف الوضع الاجتماعي المصري العام كثيرا عما كان عليه قبل ثورة يوليو. هكذا يدشّن عالمٌ روائي بواسطة صراع حقيقي دقيق بين انجازات الواقع الناصري على الأرض، وحقيقة ما يعيشه ويشعر به السارد (المواطن) -السجين السياسي السابق، بين انتاج المجتمع المدني المصري لقيم متخلفة تسيره، وانتاج السارد لقيم تقدمية تسيره.

وتلفت الرواية إلى جوهرها الإبداعي إذ تكوّن رؤيتها العامة للمجتمع الجديد من خلال اقتحام عالم الإنسان باعتباره كائناً تستند قيمته الذاتية أول ما تستند إلى كونه كائنا، فقد ميّز الوصف الروائية باعتباره المساحة الأساسية في بنيتها السردية وكرّس آليته (الوصفية) الابداعية للعناية الكبيرة بمشاعر الإنسان الداخلية ورغباته الكامنة التي لا يستطيع أن يجهر بها إلا لنفسه رغم تلقائيتها وإيجابية بواعثها ضمن السلوك البشري العام، وكذلك كرّس آليته للعناية بممارسة الإنسان لأفعال الحياة اليومية التي يرد الوصف

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لها في سياق دلالي كلي يتجه إلى الإنسان-الكائن وجودا وقيمة ومنطلقا فتكتسب تلك الأفعال قيمة غير قيمتها العادية هي قيمة ارتباطها بالإنسان.*

وقد تكشف حضور الإبداعية الوصفية السابقة في الانقطاعات السردية التي تخللت برنامج السرد الكلي (وهو ما سيفصل في التحليل الكلي) حيث تشكلت الانقاطاعات السردية من ثلاثة أجزاء (انقطاعات): انقطاع يتذكر فيه الراوي أيام الأعتقال والتعذيب وينطوي هذا الانقطاع على مقابلة ضمنية بين واقعه وهو سجين حقيقي وواقعه وهو حر طليق، حيث يكتشف أنه سجين في واقع الحرية أيضاً إذ يعيش داخل بناء معاناة اجتماعية شاملة (سياسية اقتصادية اجتماعية) لا مكان فيه (في البناء) للتعددية السياسية وسيادة الديمقراطية الحقيقية أو للإحساس بالعدالة الطبقية، وفي ظل سيطرة قيم متخلفة ديمقراطياً وعقلانياً وحضارياً في المجتمع المدني -كما يبدو في الرواية- تربك بدرجات متفاوتة مسيرة تحديثه الحضاري الشامل (مثل حرية تصرف الأفراد بأجسادهم)، وانقطاع يتذكر فيه ماضيه العائلي الحميم الجميل وطفولته السعيدة إذ يبدو ذلك الماضي قطعة ثمينة نفيسة من تاريخ الراوي الشخصي مفعمة بالبراءة والجمال والسكينة والرضا تمثل ملجأ حصيناً يأوي إليه الراوي إزاء حاضرٍ قاهر يعيشه لا يُعنى بوضع الإنسان العام، ومشاعره الثمينة فيقيم الاستبداد الشامل بدل الحرية الشاملة في النطاق الوطني - سواء أكان المسؤول عن ذلك الدولة أم المجتمع المدني، وانقطاع يعلق في الراوي على مواقف اجتماعية حدثت أو تحدث معه - وهي تعليقات تحدث داخل الذات (ذات الراوي) وموجهة منها إليها - حيث تكتسب التعليقات قيمة سياقية لا تقل عن أهمية قيمتها الموضوعية؛ إذ يُعلل سياق انقطاع الراوي في الحديث الى ذاته فقط بعدم تقبل الثقافة الإجتماعية السائدة للحرية الكاملة للفرد في ما يقول حتى لو استند قوله الى المنطق والتلقائية، ولا تتوقف المسألة عند عدم التقبل وحسب بل تتطور الى وضع المتكلم في خانة النفي والشك-الاتهام إذ يعد محور العاطفة-الجنس المثال البارز في السياق السابق،

---

* يقول د. يوسف إدريس في تقديمه لرواية (تلك الرائحة) أنه وجد صنع الله يرى أولاً وينفعل أولاً ويقطر رؤاه وانفعالاته على الورق بلا أي محاولة لإخضاعها لفلسفة معينة أو نظريات، وجدته قد آمن هذه المرة بالإنسان كظاهرة أعظم من كل الظواهر وأصبحت أشجان الإنسان الصغيرة أهم آلاف المرات من المعادلات مهما بدت رائعة الانضباط فوق الورق.
صنع الله ابراهيم ، تلك الرائحة، طبعة ١ ، دار شهدي، القاهرة، ١٩٨٦، ص٢٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وينطبق الأمر نفسه على بروز ما يحمله الراوي من ايديولوجية سياسية مغايرة لما تحمله السلطة القائمة.

وفي إيديولوجية الرواية نرى المعطيات السردية بأكملها متجهة إلى رفض كل ما هو سلبي (مزيف) وغير إنساني في المجتمع الجديد مثل السجن السياسي وقمع المجتمع المدني لحريات الفرد المتعددة ومثل صورة مصر الاقتصادية السلبية كما رسمتها ملفوظات شخصيات الرواية، وأهم مقطع سردي في هذا السياق ما قاله خطيب أخت الراوي عند عودته من عمله إذ "وقف ساعتين أمام الجمعية ليشتري اللحم. وقال أن الحالة لا تطاق. وقال: أنتم (الاشتراكيون) تريدون أن تنشروا الفقر. وقال: ليست أمامي فرصة للثراء. لو كونت أي شيء ستأخذه الحكومة. (١)

أو ماقاله صديق خطيب أخت الراوي "إنه بعكس الموظفين الآخرين لا يرتشي. وقالت زوجته: خيبة. وقالت: إن العمال لم يعد أحد يعرف كيف يكلمهم. وقال عادل إن سائق خاله فهمي بيه لا يستيقظ قبل العاشرة صباحا بينما يقوم فهمي بيه من الفجر."(٤١:١) أو الإشارة إلى الفقر الشديد في روسيا (الاشتراكية)(٣٩:١)، كذلك ذكر السرد الطبقية صراحة باعتبارها مشكلة اجتماعية حادة، وقد ذكرها مرتين.(٤١،٤٠:١)

وتنتهي الرواية بلجوء الراوي إلى ماضيه الجميل (عبر آلية التذكر) الذي هو البديل عن حاضر لا يفرح الراوي بل يقهره – فالمشهد الأخير في الرواية هو استمرار فرض الإقامة الجبرية على الراوي منذ خروجه من السجن ؛ أي استمرار الحالة الثنائية الكلية التي رسمتها الرواية.

حبكة الرواية وأحداثها

تخلو هذه الرواية من الحبكة التقليدية، فتستند العملية السردية إلى سيرورتها فقط، وهي سيرورة متولدة من إرادة السرد ذاتها، التي هي إرادة واعية متمظهرة في تماسك قائم لدلالة سردية عنوانها "تلك الرائحة".

---

(١) صنع الله ابراهيم ، تلك الرائحة، طبعة ١ ، دار شهدي، القاهرة، ١٩٨٦، ص٤١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومعنى ذلك أن هذه الرواية تعمد في إيجاد الترابط بين عناصرها الكلية (شخصيات وعلاقات) من خلال الذهن الذي يربطها بإخضاعها جميعا لنظام ذهني (علاقات عقلية) يحتوي ضمناً على روابط سببية تفسر التجاورات والتعالقات الموجودة بين جميع العناصر، وحيث يشكل النظام الذهني السابق برمته وجهة النظر الكلية في الرواية التي لم تعد قائمة على الحبكة السببية التقليدية. *

ويمثل هذا التراجع عن الحبكة التقليدية اتجاها يسيطر على الرواية الحديثة التي أخذت تسير نحو فهم أعمق وأعقد للحياة الإنسانية لا يمكن أن يتم عبر الروابط التقليدية في الرواية. فالرواية الحديثة تكرس بشكل أساسي الرؤية الفردية للواقع أيا كانت درجة تعقيد هذه الرؤية؛ إن موقف الذهن الفردي للمؤلف وعلاقاته المتداخلة هو ما يحكم الرواية الجديدة التي يحسب صنع الله إبراهيم عليها. (١)

والصراع الروائي في حبكة من هذا النوع يقوم على أرضية هي تجاور العناصر المتصارعة في المساحة السردية، حيث يتحدد شكل الصراع واتجاهه عبر العلاقات السياقية، أي أن التحديد ضمني (غير مباشر) يستند إلى أسس عقلية، وهذه الرواية – كما رأينا– تشكل الصراع فيها بين المواطن والسلطة أحَدّ ما تشكل عندما دخل الماضي في علاقة حية مع الحاضر، فتحولت طفولة البطل وصباه وذكرياته العائلية الحميمة إلى (الملاذ الأمين) له من واقع يطارده كل يوم ملزما إياه توقيع محضر إثبات وجود يومي (إقامة جبرية)، وعندما يلجأ البطل إلى ذاته متسائلاً أو مفسراً وهو يواجه المواقف السلبية المتعددة في مجتمعه، يسائل نفسه ويفسر لنفسه كذلك، إذ أجبره القمع أن يتراجع إلى حد خطير هو ذاته فقط في سياق التفاعل الإجتماعي الطبيعي للبطل باعتباره فرداً اجتماعياً مع وضع سياسي مختل ومجتمع يقمع مواطنوه انفُسهم بعدا مهما من أبعاد الحرية الإنسانية هو البعد العاطفي والجنسي (كما تجلى في واقعة مهمة تم تحليلها تحت عنوان قادم هو محاور الدلالة الروائية)، حيث تلتقي دائما أنواع القمع المختلفة لتشل الحركة

---

* قانون السببية غير مباشر في بعض الروايات، لكنه موجود كقانون داخلي حاكم للقصة.

د. صلاح فضل، نظرية البنائية في النقد العربي، ط٣، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد،١٩٨٧، ص ٤٢٠.

(١) يقول الناقد محمود غنايم أن الراوية الحديثة " لا تخلو من الحبكة أو "البناء الواضح" للحكاية، لكنها تخلو من ذلك بالمفهوم التقليدي، فالأفكار تعوّض عنها."

محمود غنايم، تيار الوعي في الرواية العربية الحديثة، ط٢، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٣، ص٣٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الإنسانية وإحساسها بإنسانيتها، وتزيد وطأة القمع عندما يضاف إليه أحد أنواع القمع الأخرى أو أكثر.

يتبين من العرض السابق كيف انبنت العلاقات الأساسية في الصراع الروائي على أسس تخضع لترابط الحبكة التقليدية؛ قادرة على تحديد القول والاتجاه في الصراع الروائي من خلال إخضاع الصراع نفسه لوعي عقلي عميق يكشفه بكامل أبعاده دون اللجوء إلى الأساليب المباشرة. ولهذا تكتسب هذه الرواية قيمة فنية عالية لأنها تمارس السرد الأدبي ضمن تقاليد عريقة تجعله بمنأى عن فجاجة المباشرة وسطحيتها.

ولذلك أيضاً لاحظنا غياب "الأحداث" بمعناها التقليدي في هذه الرواية. ومع غياب عناصر التشويق التقليدية (الحبكة، الأحداث الدرامية) فقد تحقق التشويق عبر طريق آخر أضفى على السرد إثارة وطابعا دراميا نسبيا هو تشكل السرد من مستويين اثنين يتقاطعان باستمرار يتميز أحدهما طباعيا عن الآخر- وحيث يكمن في تعاقب المستويين السرديين دلالة الرواية شكلا وموضوعاً، أي الحد الذي تتجاور عنده عناصر الصراع الروائي، البطل والسلطة، الماضي والحاضر، الحرية والقمع... الخ.

سمات الشخصية الرئيسية

في هذه الرواية شخصية رئيسية واحدة هي شخصية الراوي الذي يتحدث طوال الرواية عن نفسه وعن واقعه الذي يعيشه وعن ماض عاشه في السجن، ويصور المؤلف هذه الشخصية على أنها شخصية السجين السياسي الذي واجه السلطة الوطنية بفكر وطني مغاير فزجت به إلى السجن، والبطل سجين يساري في نهاية الخمسينات وواجه أثناء سجنه تعذيبا شديداً وعزلة رهيبة.

يصور الكاتب بعد الانتماء الوطني عند شخصية البطل على أنه أساسي في شخصيته، فبعد أن يخرج البطل من السجن فإنه يعمد إلى رؤية إنجازات السلطة في الواقع الاقتصادي والديمقراطي فيراها إنجازات لا تحقق القدر المطلوب فيصدم ويعيش اغترابا عن تلك السلطة ويستعيض عن الواقع باللجوء إلى الذكريات الجميلة في طفولته، إنه منتم لهذا الوطن ولكن ليس للحظة الزمنية السياسية التي يعيشها لأنها لحظة يراها غير عادلة اقتصاديا وديمقراطيا، وهو يقول ذلك بأسلوب غير مباشر كأن يذكر السجن

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

السياسي ويعقد المقارنة بين الحاضر والماضي، وعبر انتقادات عابرة للوضع الاقتصادي والسياسي على لسان الشخصيات كما سنرى في التحليل الكلي للعمل.

ثم يصور الكاتب بعداً خلاقا في شخصية البطل هو بعد السعي إلى إعادة بناء تصور للحياة والإنسان يقوم على حرية الإنسان وتتبع تلقائيته والتعامل معه باعتباره مادة لها خصائصها وأساليبها الذاتية والطبيعية التي تكتشف اكتشافا أكثر مما تحدد تحديداً حيث يريد البطل إعطاء ما يكتشفه شرعية اجتماعية عبر إعطائه الشرعية الفكرية من خلال المنهج السابق ذكره في فهم الإنسان والتعامل معه، ويطبق البطل هذا الفهم/ المنهج على عالم المرأة أكثر من أي شيء آخر، فهو يطلق العنان لرغبته في أية إمرأة يشتهيها مفكراً فيها ومحاولا الوصول إلى جسدها إن أمكنه ذلك، كما فعل مع سامية (المتزوجة) صديقة أخته، وقد لا يكون هدفه هو جسدها بحد ذاته بل يمكن أن يكون مجرد إظهار من البطل لاتجاه النفس والعقل إذا أطلق لهما العنان ضمن أسس ليبرالية عميقة، حيث يعكس ما سبق المكانة الرفيعة التي يوليها البطل للحرية الفردية التي يراها البعض متجاوزة حدوداً كثيرة، إلا أنها تمثل ردة فعل على غياب الحرية الاجتماعية والسياسية وهي ردة فعل مبررة، ليس من المنظور السابق فحسب، بل من استناد الحرية الفردية السابقة إلى أسس منهجية-عقلية في عالم الإنسان يؤيدها البعض ويرفضها آخرون ويظل الموقف منها موضع خلاف.

إن شخصية بتلك السمات جميعا ليست شخصية عادية أو ربما بسيطة، بل هي شخصية عميقة تعيش الهم الإنساني ببعديه الفردي والجماعي، وهي في النهاية شخصية المثقف والسياسي المصري أيا كانت هويته الإيديولوجية، وهي الشخصية التي تشكلت في ضوء التجربة التاريخية التي عاشتها مصر زمن الحكم الناصري وهي شخصية واقعية حية اكتفت الرواية التي تدافع عنها بالحديث عن سلبيات تلك التجربة دون إيجابياتها وهو ما يمكن أن يعكس وجهة نظر لدى الكاتب تتقصى السلبيات لمعالجتها وتجاوزها لا للانتقاص من تلك التجربة، وعلى اعتبار أن الإيجابيات هي وضع طبيعي يجب أن يسود دائما وعندما يسود فإنه لا يكون منة من السلطة على المواطن لأن المسألة مرتبطة بحقوق إنسانية طبيعية شاملة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سمات الشخصيات غير الرئيسية

إن المهمة الأساسية التي أناطها المؤلف بالشخصيات الثانوية هي عكس (Reflection) صورة الوضع الاقتصادي والاجتماعي في مصر وصورة الوضع النفسي للشخصيات، وتمثلت هذه الشخصيات في أقارب البطل وجيرانه ومعارف أقاربه ومعارفه هو والمواطنين الذين يراهم في الشارع والجنود المصريين الذين رآهم وهم عائدون من اليمن... وهؤلاء جميعا أقرب ما يكونون إلى المواطن العادي في مصر خلال تلك الفترة، وهو المواطن الذي ينتمي إلى الطبقة الدنيا أو الطبقة المتوسطة الدنيا؛ فغالبية تلك الشخصيات هي من موظفي القطاع العام أو العمال أو الجنود.

وتلك الشخصيات جميعا لم يكن حضورها الفردي في السرد الكلي بحجم حضور البطل، فكثير من تلك الشخصيات كان يظهر مرة واحدة في موقف سردي يعبر بشكل مباشر أو غير مباشر عن رؤيته العامة للحياة في ظّل الحكم الناصري، حيث تلتقي جميع الرؤى السابقة في كونها ناقدة للوضع الاجتماعي العام في مصر أو معانية اجتماعيا أو سياسياً، فمنى زوجة صديق البطل ورفيقه السياسي عانت من الحكم عندما قَتل زوجها تحت التعذيب في السجن السياسي، وخطيب أخت البطل ينتقد اشتراكية الفقر التي لا تلبي له احتياجاته. ويرسم المؤلف على لسان البطل صورة لوجوه المواطنين السائرين في الشوارع فيصورها كئيبة وحزينة "كل الناس أراهم في الشارع وفي المترو متجهمين دون ابتسام. ولأي شيء نفرح".(١)

إن تصوير مشاعر الحزن والألم والإحباط لدى تلك الشخصيات جراء السياسات الحكومية تكشف الوضع النفسي السلبي للشخصيات التي تعيش القهر ولا تملك إزاءه غير الرفض بالكلمات، وإن هذه الصورة المرسومة للشخصيات تخدم وجهة الرواية السائرة نحو رسم مصر السلبية والمعانية، وهي من المهام الأساسية لهذه الرواية.

هكذا تكون هذه الشخصيات أقرب ما تكون إلى الثبات، إلا أن الثبات هنا ليس ضعفا فنيا، فالشخصيات هنا موجودة لترسم صورة الوضع العام دون إسهاب. في حين رسمت شخصية البطل صورة الوضع الخاص للشخصية بإسهاب كشف حدود الصراع بين المواطن والسلطة، والإنسان والقمع فأظهر المؤلف قدرته على الغوص في

---

(١) صنع الله ابراهيم ، تلك الرائحة، طبعة ١ ، دار شهدي، القاهرة، ١٩٨٦، ص ٣٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الشخصيات وكشف حقائق مشاعرها الداخلية وأفكارها الباطنة وبهذا يكون دور رسم صورة للوضع العام دون إسهاب –وهو الدور المناط بالشخصيات الثانوية– تغذية البعد الجماعي في الرواية ووضع خلفية عامة للمساحة التي يتحرك عليها البطل ودعم وجهة الرواية في نقد سياسة الحكومة.

الأسلوب واللغة

إن السمة اللافتة الأولى التي تطالع دارس هذه الرواية هي تعدد مستويات السرد، فالسرد الكلي هنا ينجز بمستويين سرديين مميزين طباعياً، يتقاطعان باستمرار من أجل صناعة السيرورة السردية الكلية، حيث يخضع تعاقبهما لضرورة فنية وإبداعية، أي أن ازدواجية المستوى السردي هنا تخدم شكل الرواية (بنيتها)، فليست التقنية هنا تقنية وحسب.

ومن السهل فهم المستويين باعتبارهما عالمين يشكل وجودهما وحركتهما الثنائيات الكلية في الرواية، فثمة معالم أسلوبية واضحة لكل مستوى؛ فالمستوى الأول يتسم بلغة سردية واقعية تنشغل بالوصف (الموضوعي) للأشخاص والأشياء كما سنوضح، والمستوى الثاني يتسم بلغة أدبية متباينة المستويات تنشغل بوصف معقد بطبيعته فهو وصف للطبيعة الإنسانية ينهض واعيا من أسس نفسية وفكرية كما سنرى.

إن المسرود اللفظي في المستوى الأول كان (واقعياً) أي مألوفا وسهلا، كانت وظيفته الأساسية الوصف الموضوعي للأشخاص والعالم، وهذا المستوى هو مستوى الحركة وتعاقب الزمن في الرواية، فجاءت الكلمات من تلك التي يستخدمها معظم الناس في الأحوال اليومية والعادية (بطانية، العسكري، ملابس، الحمام، السينما، سيجارة، أجلس، أخرج، ...) بينما تميز المستوى الثاني بمسرود لفظي خاص انسجاما مع الدرجة الأدبية المتباينة المستويات التي تميزه من المستوى الأول الذي لا نستطيع مساواته أدبياً بالثاني، ويتصل هذا المستوى بالمشهد والحركة الذهنية بخلاف الأول، وإن الضرورات الفنية التي حكمت وجود هذا المستوى اعتمدت محددات مثل استحضار مكثف للماضي أو رغبة السارد في كشف أفكاره الداخلية وعالمه الباطني – اللذين لا يستطيع إظهارهما في مواقف المصارحة– أو رغبته في التفلسف،... ويظل هذا المستوى عموما مركز الخصوبة الدلالية في هذه الرواية بسبب طاقته الأدبية العالية ووضوح تفاعل الثنائيات

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فيه، فنستطيع من الناحية المعجمية رصد كلمات مثل (أعماق، تُقبِّل،الإحساس ، قهر، الثقة، يفتقد، يستغل،...).

ثمة أيضا ما يمكن قوله عن تركيب الجملة ضمن البعد الأسلوبي للتركيب، ففي المستوى الأول ظهرت الجمل القصيرة -كثيراً- التي تنسجم مع نهج أسلوبي للرواية يصفه المؤلف نفسه بالاقتصاد والدقة (١) ، وهو نهج استطاع أن ينتج سلسلة حقيقية من وصف سردي (موضوعي) أظهر الموصوفات المادية بخاصة كأنها عناصر حية تمكنت على مَدى الرواية من تشكيل شخصية اعتبارية مساوية للشخصيات الحقيقية -فتجلت ثنائية الأشياء/ الإنسان متجاورة ومتفاعلة مع ثنائيات الحقيقة/ الزيف، الواقع/ المرغوب، الحرية/ السجن، السلطة/ المجتمع* . ولنأخذ المثالين التاليين: "وفي الصباح خرجت واشتريت الجرنال وزجاجة لبن صغيرة وخبزاً. وعدت فغليت اللبن ووضعت فيه السكر ثم غمست الخبز في اللبن. وقرأت الجرنال. ثم خرجت..."(٤٢:١)، "وأخذت ملابس نظيفة ودخلت الحمام. وأغلقت الباب خلفي. وخلعت ملابسي، ووقفت عاريا تحت الدش. ثم دعكت جسمي بالصابون وفتحت الدش فوقي. ورفعت رأسي إلى أعلى وحدقت عيناي في عيون الدش الصغيرة. وسالت منه المياه... "(٢٧:١)

وفي المستوى السردي الثاني المتميز بطاقته الأدبية تفاوتت الجملة قصراً وطولاً حتى يتاح للطاقة الأدبية أن تعبر عن نفسها عمودياً وأفقياً دون قيود، ومع ذلك ظلت التراكيب دقيقة ومكثفة انسجاماً مع الرؤية ذاتها لدور اللغة في فهم عالم الإنسان وتحديده - فيكون التكثيف والتدقيق أداة أسلوبية تخدم البعد ما وراء اللغوي وهو البعد الساعي هنا

---

(١) صنع الله ابراهيم ، تلك الرائحة، طبعة ١ ، دار شهدي، القاهرة، ١٩٨٦، ص١٠.

* يتجلى الأسلوب الموضوعي (العقلاني) في النماذج الروائية الواقعية كما مثلها بلزاك والروائيون الواقعيون الاشتراكيون، فقد نظر هؤلاء الى الواقع الاجتماعي بمنظار عقلاني يتسم بالموضوعية وغياب النظرة الذاتية قدر الإمكان. وعندهم تسبق صياغة الرواية عملية تحليل وتبصر بالواقع الاجتماعي يتم بعدها تشكيل عالم روائي في تركيب جديد متناظر مع الواقع الإجتماعي، ولكنه في نفس الوقت متميز عنه لأنه ليس سوى عالم متخيل.

د. حميد الحمداني، الرواية المغربية ورؤية الواقع الإجتماعي: دراسة بنيوية تكوينية، ط١، دار الثقافة، الدار البيضاء، ١٩٨٥، ص ٧٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إلى تدقيق الحقيقة المرئية والمنطوقة وتحديدها دون تشويش من أجل "إحداث التغيير الشامل لإعادة اكتشاف الوجود في شكل ملائم يعكس الحقيقة الجديدة المكتشفة" (١). ولنأخذ مثالا: "وقبلتها في خدها . ثم شفتيها. وعندما تشجعنا قليلا، أمسكت بشفتي التحتية وعضتها بقسوة . وتألمت. كنت أريد أن أحس بشفتها ناعمة في فمي. ولم أكن أشبع منها. ولو استطعت أن أظل محتضناً إياها طول اليوم لفعلت."(٢)

لقد اضطلعت اللغة (مفردة وأسلوبا) بالدور الأكثر مركزية في بناء العالم الدلالي الكلي للرواية، فهذه الرواية لغوية في المقام الأول. وقد وظف الرمز في هذه الرواية (الرائحة) التي كانت فيزيائيا رائحة غازات المعدة والمجاري ورمزيا رائحة (علامة) الألم والقهر والسجن.

هل هي رواية؟

رغم قلة الصفحات، ورغم سهولة تداخل العمل بالقصة القصيرة أو القصة القصيرة الطويلة...، ثمة ما يشد هذا العمل إلى الحيز الروائي. ويبدو المدخل الأسهل لهذا الحيز هو وجود أكثر من عالم واحد في العمل، إننا نرى طوال العمل وجود ما لا يقل عن عالمين وتداخل العوالم إبداعيا – عبر وسيط إمكان التعدد وهو الرواية – فهناك عالم السجن وعالم الحرية، هناك عالم الحاضر وهناك عالم الماضي، هناك عالم راكد قانع (الدولة والمجتمع) وهناك عالم آخر يتفجر حيوية ورغبة في التغيير الاجتماعي والمفهومي وهو عالم السرد – السارد.

كذلك فإن سعة حدود حركة التفصيلات السردية والوصفية التي كانت العنصر البنائي الحقيقي للدلالة الروائية –كانت سبباً آخر في التعامل مع العمل الفني باعتباره رواية. والمسألة تبدو في النهاية متصلة بتحقق توازن موضوعي بين عالمين كبيرين أساسيين كلاهما له حدوده المتعارضة مع الآخر.

---

(١) د. السعيد الورقي، اتجاهات الرواية العربية المعاصرة، ط١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٢، ص٣١٥.

(٢) صنع الله ابراهيم ، تلك الرائحة، طبعة ١ ، دار شهدي، القاهرة، ١٩٨٦، ص ٣٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

محاور الدلالة الروائية

تتحقق الدلالة الكلية للسرد في هذه الرواية من خلال مستويين سرديين يتقاطعان باستمرار مشكلين شكل السرد الكلي، حيث يتميز كل مستوى عن الآخر طباعياً، وحيث تمثل آلية التقاطع السردي آلية احتكاك عالمين سرديين، يخلق احتكاكُهما صراعهما، ويخلق صراعَهما حد أدنى وصفي أو حواري -أو كلاهما- يمنح العالمين هوية كل منهما المستقلة عن الآخر والمتناقضة معه، وإن احتكاك مستويي السرد هو احتكاك يسعى إلى أن يتواجه العالمان السرديان تواجها شاملا، حيث المعنى الأساسي للتواجه الشامل هنا هو صدام لا يعترف فيه كلا الطرفين بالطرف الآخر؛ فهو صدام جذري مع التنبيه على أن السارد هو الذي يصنع هذا الصدام كله بما يسرد علينا ما يراه، أو ما يقوله. وأهمية ذلك التنبية هو إبعاد تصور للسلطة يضعها كلياً في دور الشيطان، فمعطيات السرد كلها لا تستطيع ذلك وحجم السرد القادر على التشخيص السلبي للسلطة جزئي - ولا يجوز إنكار شرعيته كذلك - وإن حدود العملية النقدية لهذه الرواية ستصطدم لا محالة بالحدود الكلية للسرد والحدود التاريخية خارج السرد الذي ينبني كسرد فني على تجربة تاريخية بأبعادها الحقيقية.

ويمكن أن نتبين في المستويين السرديين مستوى يصف الوقائع المختلفة بطريقة قريبة من الحياد (ظاهريا على الأقل)، ورغم ذلك فإنه وصف يعني للقارئ رسالة نقد وإدانة، لكنها رسالة تتميز بهدوء نسبي بحكم تركيبها اللغوي العام، ومستوى ثانياً حاداً من الوعي المضاد الثائر على حقائق العالم السردي في المستوى السردي الأول حيث يفجر المستوى الثاني حقائقه في مواجهة حقائق العالم الأول مسلحاً بإمكانات منطقية رفيعة المستوى.

وتقترب الحركة الدلالية بين مستويي السرد أكثر ما تقترب من حركة بين (الحقيقة) و(الزيف)، حيث يجد هذان المفهومان معادلاتهما المادية والرمزية في السرد الكلي ويستوعبان باعتبارهما مفهوماً صراعياً كلياً مختلف الثنائيات التي ينبني عليها السرد. ويمكن إدراج عنوان الرواية في علاقات التحليل النقدي الكلي في ضوء انسجام هذه العلاقات مع ذاتها ومع العنوان "تلك الرائحة" كما سنرى لاحقاً.

وإذ ستعالج العملية النقدية (أو تحاول) عما قليل الشرائح النصية الجزئية التي يشكل مجموعها النص الكلي فإن السياق (السابق) يدفع الباحث إلى التنبيه إلى حيثيات

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

البناء السردي في سياق الاندفاع الطبيعي (الذاتي) لهذا البناء نحو خلق شكله الدّال؛ فعملية التجادل الخلاق التي يبدعها السرد على مستويي الكل والجزء لا تتم في هذا العمل بطريقة آلية عبر أي تراتب أو توال (متسلسل حسب البرنامج السردي) لأي تقاطع سردي، بل تتم عبر تفاعل معقد في تداخلاته ومرجعياته الداخلية (داخل السرد الكلي)، وإذ تتم العملية السابقة على هذا النحو فإن مسوغ ذلك هو الطبيعة الحية والإبداعية للسرد، وهي الطبيعة التي تعني -من ضمن ما تعني- وجود شخصية فردية حقيقية للعمل. ينبه الباحث كذلك إلى استخدام مفهوم الشريحة النصية بدافع أساسي هو غياب الحبكة المألوفة. وإذا بحثنا عن دقة أكبر فإن الشريحة كمفهوم تعادل المكون البنائي الجزئي للسرد الكلي الذي هو حاصل تسلسل مكونات جزئية وتفاعلها المعقد.

إن البنية الإبداعية للسرد الكلي مضاف إليها نوعية المنهج النقدي الأكاديمي يدفعان الباحث إلى تجاوز تحليل سردي متسلسل حسب التسلسل السردي القائم جزئيا دون أن يعني هذا إلغاء أجزاء من السرد فالغاية الأساسية من المنهجية السابقة هي محاولة خلق فهم عام محكم للنص الكلي -وهو ما يتم وسيتم من خلال فهم العلاقات التركيبية الجزئية.

في ضوء ما سبق ستبدأ الخطة التحليلية بـ (واقعة) زيارة السارد لزوجة رفيقه في السجن السياسي (رفيقه استشهد تحت التعذيب) وحواره معها حيث يتضح أن القيمة الدلالية السردية الأساسية تكمن في هذا الحوار، ولمزيد من الدقة فهي تكمن في كلام أحد المتحاورين أكثر بكثير من الآخر وحيث السارد هو الطرف الحواري الخصب كما سنرى.

إن الأهمية الظاهرية لهذه الزيارة هي الوفاء الإنساني من معتقل تحرر لمعتقل رفيق لم يُقدّر له أن يتحرر، والوفاء هنا يأخذ شكل الاهتمام بزوجة الرفيق دعما لحالتها النفسية ووجودها الاجتماعي حيث كان المحور البنائي الأكبر للمكونة البنائية السابقة (الواقعة) قائما على الحوار، وهو حوار طويل، مما يدل على تموضع دلالي جزئي وكلي عميقين وأساسيين فيه، وهو ما يتعزز بعد الاستمرار في قراءة وتحليل النص الكلي... لقد أخبر السارد زوجة رفيقه بصموده وشموخه حتى اللحظات الاخيرة لاستشهاده ... وهو المتوقع الأساسي من جانب الرفيق الطليق في لقاء كهذا، في حين أن الزوجة (منى) توجت الحوار السابق وحقائقه الحادة القاسية (سجن الزوج، استشهاده) بسؤال بدا غريبا

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في سياقه إذ سألت السارد: "هل كان يحبني حقيقة؟ وقلت لها: بالطبع"(١) ، بعد ذلك سينقطع السرد مباشرة ليظهر سرد مغاير مميز طباعياً: "فماذا أقول لها، وما الفائدة أن نحقق الأمر على وجه الدقة بعد أن انتهى كل شيء، ثم من ذا الذي يعرف على وجه الدقة ما يدور داخل إنسان آخر؟ ..."(٢٩:١) إن السرد المميز السابق ليس تقنية فنية وحسب بل هو وبدافع أساسي دلالة سردية بنيوية نلمح فيها أول ما نلمح أنها دلالة تحققت تقنيا عبر إظهار كلام للسارد لم يكن ليتسنى له أن يظهره في موقف تخاطبه الصريح (الطبيعي) مع منى فجاءت التقنية السردية (مستوى قصّ آخر) لتكشف لنا بوضوح وعبر الصوت السردي ذاته حقيقة ما يقوله في نفسه ولا يستطيع أن يقوله ل (منى) لاعتبارات اجتماعية ونفسية مسؤولة عن الفجوة الحوارية القائمة في حوار منى والسارد، إذ تبين القراءة الكاملة للسرد المميز السابق وقائع في حياة زوج منى يعرفها الراوي أهمها أن زوجها كان يحبها ويحب غيرها؛ فإذا كان ذلك أمراً "مفهوماً" ومشروعا لدى زوج منى مادام يتم بحد أدنى هو وعيه على ما يفعل (اقتناعه به) فإنه وضع-وعي مستنكر ومرفوض لدى منى. إن الوضع السابق (يحبها ويحب غيرها) ضمن دلالته الأعمق ودلالته المتصلة بالكل السردي يخدم سياقا آخر أشمل وأهم هو حركة الكائن الإنساني بين واقع ومرغوب، واقع قد يكون في حالة غيرة المرأة (منى) بدافع طبيعي، ومرغوب في حالة زوجها بدافع طبيعي أيضا، فالصراع حقيقي وأساسه في بنية الطبيعة البشرية، والحركة بين واقع ومرغوب تتعب وتحطم كل أطراف اللعبة وتضطرهم إلى إخفاء حقيقتهم التي هي شرعيتهم الوجودية العامة -ربما كان ذلك قمة الجنون لكنه في الوقت نفسه قمة الحقيقة- إن (الواقعة) السابقة تنطوي على دلالتها الجزئية (العينية)، لكنها دلالة تتدافع نحو موقع دلالي عام في البنية الدلالية الكلية للرواية هو فجوة بين عالمين كبيرين يتصارعان في السرد حيث الفجوة هي الدلالة الجوهرية للعمل.

ففي (الواقعة) التالية يسلط السرد إمكاناته المنطقية على الفجوة السلبية من منطلق آخر فالسياق لقاء عاطفي وجسدي جزئي بين الراوي وصديقة له يفجر اللقاء المذكور بينهما مشاعر جميلة وأفكار للطرفين لا حد لها ضمن القدرة الطبيعية المعروفة للعاطفة والجنس على نفاذ الإنسان إلى أعماق ذاته الخصبة وطبيعته الإيجابية وحدود وجوده

---

(١) صنع الله ابراهيم ، تلك الرائحة، طبعة ١ ، دار شهدي، القاهرة، ١٩٨٦، ص٢٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ككائن. فبعد أن ينتهي السارد من وصف حركة الأعضاء البشرية المدفوعة بجنون الشهوة ينقطع السرد ليحدثنا السارد عن وصف أكثر تعقيداً للعملية العاطفية والجسدية: "وكنت أطلب منها أن تعري ساعديها لأقبلهما وأحسهما على جسدي. لكنها كانت تتردد وفي الظلام كنا نرقد ونلتصق ببعض في عنف لننسى العالم وكل شئ. ولا نعود نفكر في أي شئ أو نخاف من أي شئ. وعندما يكون خدي لصق خدها..."(١). يتحقق مفهوم الفجوة أو الزيف هنا عندما يكون فعل الجنس والشهوة فعلا طبيعيا (بمقاييس الطبيعة البشرية) وفعلا ينطوي على مردود خصب جدا شعوريا ومعرفيا – تمنع الثقافة الاجتماعية السائدة ممارسته إلا ضمن قيود اجتماعية صارمة كالزواج (صارمة لأنها أبدية ولأنها صعبة المتطلبات المادية في المجتمع العربي المعاصر)؛ فاتصال السارد العاطفي والجسدي الجزئي كان ينبغي أن يسير إلى نهايته الطبيعية التي يتحقق فيها جوهر الممارسة العاطفية والجنسية وهي الاتصال الجنسي الطبيعي الكامل، لكن استثارة السارد عاطفيا وجنسيا نتيجة القبل والملامسات والاحتكاكات (وهي الحدود الموضوعية المسموحة فردياً، من طرف من يمارسها لا من طرف المجتمع) كان مصيرها أن تصل ذروتها في الحمّام عبر تفريغ ذاتي (استمناء) قام به السارد يتعارض في الصميم –باعتباره ذاتيا– مع طبيعة العملية العاطفية–الجنسية ومغزاها الاتصالي.

وعلى هذا النحو نلاحظ أن القمع الجنسي يستند في الشرق إلى أساس ثقافي اجتماعي مما يصعب تجاوز الأفراد له –على الرغم من كون الجنس حاجة بيولوجية أساسية وممارسة خالية من أية صعوبات أو تعقيدات في المجتمعات العالمية المتقدمة التي تجعل هذه الممارسة مسألة هي في صميم الحرية الفردية لا يجوز إخضاعها لغير هذا الإطار ودون أن يتنافى ذلك مع محاولات التوجيه الإيجابي المستمر لسلوك الانفتاح الجنسي ونواتجه حيث لا تتعارض تلك المحاولات بطبيعتها مع الحرية الفردية.

وإن أهمية احتجاج كهذا على ثقافة المجتمع العربي المعاصر من أفراده المقموعين جنسياً (من خلال الواقعة السابقة) تعكسها درجة شرعية–قوة الإمكانات المنطقية التي يحشدها السرد في صراعه مع كائنات تخفي حقيقتها.

---

(١) صنع الله ابراهيم ، تلك الرائحة، طبعة ١ ، دار شهدي، القاهرة، ١٩٨٦، ص ٣٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وضمن الممارسة النقدية على مغزى الواقعة السابقة والواقعة التي سبقتها فإن مستويات السرد المتعددة الموجودة في هذه الرواية تكرس الحالة الثنائية في الرواية (كذلك يفعل أسلوب أنسنة الأشياء المتغلغل في نسيج الرواية إذ يؤدي الوصف الدقيق للأشياء في مساحة كبيرة في السرد الكلي إلى وضع الأشياء في سياق تقابل مع الذات المتضخمة للسلطة).

وفي سياق تصادم العالمين الكبيرين في الرواية الحقيقة/ الزيف والثنائيات المتعددة المتصلة بالثنائية الأساسية: الدولة/ المجتمع، السجن/ الحرية، الثقافة القمعية/ الثقافة التحريرية، الحاضر البائس/ الماضي الجميل، الانسجام مع الطبيعة الإنسانية/ التعارض مع الطبيعة الإنسانية... يمكن تبين الوظيفة الدقيقة للانقطاعات السردية باعتبارها مادة معرفية تسعى إلى فهم الإنسان-الكائن وهو فهم قائم في طبيعة الإنسان وتلقائيته ورغباته (أفراحه وآماله وآلامه...)، وللوظيفة السابقة اتصالها الوثيق بإيدولوجية الرواية إذ تعمل المادة المعرفية في الانقطاعات السردية على إيجاد شرعية اجتماعية للرغبة الإنسانية والحالة الإنسانية بعد إيجاد شرعية فكرية لها تقوم على ركيزتي تبرير منطقيتين كبيرتين هما الطبيعة البيولوجية للكائن وإيجابية مردود الفعل الممارس على الإنسان. فالجنس (مثلا) إذ ينطلق باعتباره بعداً أساسياً في الإنسان - الكائن في مسار حركته وحريته التامة، فإنه يؤدي إلى تكامل الذات الإنسانية وتحققها، وهي الذات التي لن تتكامل وتتحقق بدون إطلاق الأبعاد المتعددة لها -التي نحصرها جميعها بالبعدين العامين المادي والمعنوي.

ويمثل السجن السياسي بمجرد وجوده المادي في المجتمع الجديد عنصراً من أهم عناصر الرواية الاحتجاجية على هذا الواقع وأقواها وأكثرها إقناعاً بزيفه أو بفساده (زيف دعاواه في التحول الإجتماعي التقدمي).

" كنت أجلس إلى جواره ويدي مقيدة إلى يده. وكنا في مؤخرة السيارة وخلفنا بقية السيارات. وكان هو يعرف ما سيحدث لكنه لم يقل شيئاً. وكان يردد في صوت خافت مقطعاً من أغنية حب قديمة. وكان الهواء لاذعاً ولم يكن من شيء يقينا برودته. وأخذت أرتجف وأسناني تصطك. ولم نكن نرى شيئاً من الطريق. وجعلنا نتحدث عن هيمنجواي. وفي الظلام رأيته يخرج مشطاً من جيبه ويمشط شعره الذي امتلأ بالبياض. وكنت أعرف

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أنه يصبغه ليخفي بياضه. وكان الصمت يسود العربة. وأمامنا لف أحمد رأسه بفوطة وهو يتأوه. وكان الصداع يفترس رأسه عندما يرتجف داخله. وعندما وصلنا كان ذلك في الفجر. وأنزلونا بالعصي. وجلسنا على الأرض. وكنا نرتعش من البرد والرهبة. وكان هو أطولنا. وسمعت صوتاً يقول : ها هو. وضربوه على رأسه. وقالوا له : إخفض رأسك يا كلب. وأخذوا ينادون علينا. ثم نادوا عليه وكانت هذه هي آخر مرة رأيته فيها"(١)

ويمعن الواقع الجديد في حصار الفرد (الراوي) إذ تتوج محاولاته للبحث عن وظيفة بالفشل فيتذكر طفولته السعيدة وتاريخه العائلي الحميم الجميل، وتبدو تلك الفترة الزمنية من عمره الجنة التي عاشها على الأرض والملجأ الذي يأوي إليه الآن-الحاضر- (من قهر وإحباطات الدكتاتورية الوطنية، والطبقية، وتسلط الثقافة الإجتماعية وتخلفها). "أجل، لا زلت. كان ذلك في الشتاء. بعد الغداء. وفي الحجرة البحرية جلس أبي مع عمتي خلف زجاج الفراندة يرقبون القصر. وذهبت إليه وأردت أن اجلس على ساقيه. لكنه نحاني عنه قائلاً أني لم أعد صغيراً. وغادرت الحجرة إلى الصالة. وعبرتها الى حجرة ابنة عمتي. وكانت تجلس أمام مكنة الخياطة. وجلست أرقبها وهي تدير المكنة بساقها. وقالت لي: تصور.. انقطع الخيط من أول دورة. إنه شيطان الذي ركب هذه المكنة. وانحنت على المكنة بعد أن رمقتني بنظرة سريعة. وحولت بصري الى النافذة وأنا أشعر بأذني ساخنتين. وكنت لا أزال أرى وجهها الأبيض الرقيق والحمرة الشاحبة على خدها وأنا اتطلع الى النافذة المغلقة. الزجاج فقط هو الذي كان مغلقاً، ومن خلفه ظهرت السماء، وخلاله تدفقت أشعة الشمس الباهتة.. وتحت في الحديقة كانت أشعة الشمس تضيء فوهة البئر السوداء. وبعد ساعة سيأتي الصبية وأنزل معهم نرفع الماء بالمضخة. وسنسرق الزهور ونهز شجر المانجو بلا فائدة. ونجري في البدروم والسراديب. وهذه المرة ساختبئ منهم في الحجرة المتطرفة التي تفتح في رمضان ليقرأ فيها المشايخ كل ليلة. وعندما ننصرف بالليل ستودعنا عمتي الى الباب وتضيء نور السلم ونهبط درجاته البيضاء العريضة ونخرج الى الممر ونمضي فوق بلاطه الملون قم نفتح باب الحديقة

(١) صنع الله ابراهيم ، تلك الرائحة، طبعة ١ ، دار شهدي، القاهرة، ١٩٨٦، ص ٢٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فيئز ثم نغلقه تماماً وننطلق الى الشارع العريض الهادئ بلا صوت. وعندئذٍ أجمع الياسمين من أسوار الحدائق... (١) *

وقد نجح أسلوب السرد الموضوعي الذي تميزت به هذه الرواية مع أسلوب أنسنة الأشياء في دعم الموقف التشكيكي الذي تتبناه الرواية في رؤيتها العامة، أي التشكيك بالدور الإيجابي الكلي للمؤسسة السلطوية الوطنية بذاتها المتضخمة، والتشكيك بقناعات المجتمع المدني واتجاهاته التي لها دور أساسي في إنتاج الواقع المختل، والمشكك في ذلك كله هو السارد- الإنسان، السجين السياسي، المقهور طبقيا، المحروم جنسيا. أي أحد أعضاء الجماعة المصرية وأحد مظاهر اختلالها.

ويمثل عنوان الرواية إمعانا في تحديد ثنائية عالم معاش تتصارع فيه رائحتان، رائحة غازات المعدة والمجاري...، ورائحة طيبة أو رائعة افتراضية، فتبدو ثنائية الرائحة١/الرائحة٢ رمزية بالمقام الأول تعزز الحالة الثنائية الكلية في الرواية وترمز إليها...

فالرائحة السلبية تنبعث من عالم القمع، قمع الدولة، وقمع المجتمع، إذ يشيّدُ العالمُ السابق نفسَه من عناصر: السجن السياسي، القهر الطبقي، الحرمان الجنسي، حيث يضيع في العناصر السابقة الإنسان-الكائن الذي يصبح ضحية. والرائحة الإيجابية تنبعث من عالم السارد الحر، الرافض لقمع الدولة السياسي والطبقي، الرافض لقمع المجتمع الجنسي والثقافي. حيث يطرح السارد نموذجا ثقافيا واجتماعيا يواجه به القمع، هو نموذج المناضل والمثقف الحر، فالنموذج المطروح يبتعد عن تأطير إيدولوجي لنفسه ويتشبث باستمرار بمنطق مفتوح وطبيعة الإنسان، وهو نموذج ليس مهزوماً، فليست ثمة إشارة سردية مقنعة بهذا الصدد، ناهيك عن كون الفعل السردي الذي يقوم به السارد يعبر في المقام الأول عن رغبته في الحضور والمواجهة كما أظهرت البنية الداخلية للسرد*، إذ

---

(١) صنع الله ابراهيم ، تلك الرائحة، طبعة ١ ، دار شهدي، القاهرة، ١٩٨٦، ص ٥١.

* يرى د. محمود أمين العالم أن هذه الرواية تعبر عن خيبة أمل أسفر عنها اللقاء بين هذا السجين الشيوعي المفرج عنه وبين هذا الواقع القديم-الجديد بمفاهيمه وقيمه ومشروعاته وشعاراته وتطبيقاته. د. محمود امين العالم، ثلاثية الرفض والهزيمة: دراسة نقدية في ثلاث روايات لصنع الله ابراهيم، ط١، دار المستقبل العربي، القاهرة، ١٩٨٥، ص٥٥.

* يقول الروائي المغربي عبد القادر بن الشيخ : إن عملية الكتابة دعوة إلى رفض الغياب .
سعيد علوش، الرواية والإيديولوجيا في المغرب العربي، ط١، دار الكلمة، بيروت، ١٩٨١، ص ١٣٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تحول غياب الحضور الحقيقي للمجتمع المدني في عملية وطنية شاملة تسيطر عليها العسكريتاريا إلى إرادة حضور هائلة تمارس فعل النقد بأعقد مستوياته وأرفعها حيث يُخضع السردُ العملية الإنسانية ذاتها للنقد والمعرفة، ويحشد الأشياء في مواجهة لذات السلطة وحتى ذات الإنسان - ومن مؤشرات ذلك في السرد غياب السمات والمعالم الكاملة للشخصيات بما فيها الشخصية الرئيسية التي لم يرد ذكر لاسمها طوال السرد. إن ما بدا إبداعيا في هذه الرواية هو بناء وجهة النظر فيها على أسس عالية من الركائز التحررية بدافع الرد الواعي أو اللاواعي على المجسدات القمعية الموضوعية الرهيبة القائمة في المجتمع المصري-العربي.

وعلى الرغم من انتهاء الرواية بمشهد الراوي وهو يسرع كي لا يفوته موعد العسكري الذي يأتي إلى بيته ليتأكد من مكوثه ليلا وحتى الفجر في المنزل، وعلى الرغم من لجوء الراوي في النهاية إلى ذكريات الماضي الجميل في مصر (طفولته، صباه،...) هرباً من واقع لا مكان للفرح فيه، فإن ذلك لا يدل على توجه استسلامي في الرواية، بل على استمرار الوضع العام المختل واستمرار اغتراب الراوي في وعيه ومشاعره ومنهجيته عن واقعه المتردي... ان ما قالته (تلك الرائحة) لصنع الله ابراهيم كان عن حقيقية صراع الحقيقة والزيف في تجربة المجتمع المصري الناصري الذي يمثل الراوي أحد افراده وينتمي اليه قبل السجن، وفيه، وبعده، كما عكس ذلك الملفوظ الكلي للراوي.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثاني

نجمة أغسطس أو التقدم الاجتماعي

غير قابل للتجزؤ

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فكرة الرواية

نجمة أغسطس: حوار عميق مع السلطة

تطرح هذه الرواية في موضوعها وشكلها وجهة نظر في التجربة الناصرية (١٩٥٢-١٩٧٠) باعتبارها التجربة التي أنجزت واحدة من أهم المراحل التاريخية في التطور الاجتماعي-السياسي لمصر المعاصرة هي مرحلة دور الدولة الوطنية المصرية في التحويل المدني للمجتمع المصري، وقد قدمت الرواية رؤية للناصرية من خلال الوجود التاريخي لظاهرة السجين السياسي في الدولة الناصرية وإخضاع هذا السجين لقمع مادي ومعنوي.

وتمثل هذه الرواية نموذجا واقعيا في الرواية العربية الحديثة يقوم على تعدد مستويات السرد وتقاطعها على أسس دلالية، حيث يعني التعدد هنا تعددا في زوايا المنظور الواحد للحكم الناصري كما سنرى، ورغم التعدد السابق فإننا أمام رواية سارد واحد يسيطر باستمرار صراحة أوضمنا على كل مستويات السرد، وثمة عدد متزايد من النقاد العرب المعاصرين يرى أن تقنية وجهات النظر المتعددة والقص ذا المستويات المختلفة يتميزان عن غيرهما من التقنيات "بقدرتهما على كسر احتكار السلطة للمعرفة ويرون أن تلك التقنيات تشكل جزءًا من عملية متواصلة ومتكاملة تطرح على بساط البحث والتشكيك "الحقيقة" التي تزعم السلطة امتلاكها دون الآخرين. "(١)

وتنقسم هذه الرواية إلى ثلاثة أقسام، الأول رحلة يقوم بها الراوي من القاهرة إلى السد العالي في أسوان، ويتخلل هذا المستوى مقطعان سرديان أحدهما ذكريات الراوي في السجن السياسي مع رفاقه وثانيهما مقتطفات من سيرة النحات العالمي مايكل آنجلو.

والقسم الثاني مستوى سردي واحد يتركب من اندماج متعاقب لأربعة مشاهد معا: مشاهد من منطقة السد تصف السد وعملية البناء فيه، ذكريات السجن، مقتطفات من سيرة النحات العالمي مايكل آنجلو ومن التاريخ الفرعوني، ومشاهد من حالة عاطفية تعقبها ممارسة جنسية بين الراوي وفتاة روسية تعرّف عليها في السد.

---

(١) د. سماح إدريس، المثقف العربي والسلطة: بحث في روايات التجربة الناصرية، ط١، دار الآداب، بيروت، ١٩٩٢، ص١٤٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والقسم الثالث رحلة يقوم بها الراوي إلى (أبوسنبل) إحدى أشهر المناطق الأثرية والسياحية في مصر، ويتخلل هذا القسم مقاطع خاصة بذكريات الراوي عن صباه وشبابه في مصر، ومقاطع من التاريخ الفرعوني.

ولفهم إيديولوجية هذا العمل الروائي سيكون السد العالي المحور الروائي في بناء وجهة النظر الكلية؛ دون أن يتراجع أو يتهمش دور محور روائي أساسي آخر في العمل هو السجن، فالمحوران متعادلان في القيمة يعني تعادلهما مبرر الصراع وحركته في هذه الرواية إذ الحد الأدنى اللازم لوجود الرواية هو "وجود صراع ما بين عنصرين على الأقل "[1] ، والفكرة السابقة تعميق لفكرة باختين عن حوارية الرواية وتحديد معرفي - نقدي حديث للرواية على أنها إيديولوجيا (إن في بعد البناء التركيبي وإن في بعد الغاية) فالإيديولوجيات تقتحم النص باعتبارها مكوناته الأولية لأنه لا يمكن بناء نص روائي إلا من خلال هذه المادة الأولية" (٢٦:١) ولا يتنبه القارئ إلى مشروع الكاتب الإيديولوجي إلا بعد أن يكون قد انتهى من قراءة العمل (٣٦:١) ، فالعمل الكلي يتضمن عرضا وتفسيراً لحدود مختلف الإيديولوجيات وعلاقاتها فيما بينها وهو ما لايمكن أن يتم دون ناظم إيديولوجي هو ناظم المؤلف نفسه.

إلا أن المساحة السردية التي يحتلها السد أكبر من مساحة سرد السجن فبدا السد روائيا المفتاح الذي يمكنه فتح فهم كلي متماسك للعمل.

فقد مثّل السد نواة المسرود في القسم الأول من الرواية (١٣٩ صفحة) أي أكثر من نصف الرواية (٢٤١ صفحة مجموعها)، واتخذ حضور السد شكلا مباشراً بحديث السرد المسهب عن التفاصيل المادية الدقيقة والشاملة للسد باعتباره مشروعاً ماديا (عمرانيا-تنموياً-علميا) ومدلولا رمزيا للإرادة الجمعية الخلاقة.

الحبكة والأحداث

لا توجد حبكة في هذه الرواية ولا ما يشبه الحبكة، وتعد هذه الرواية أعقد بناء فني روائي لصنع الله إبراهيم، فهي تقوم على ما يسمى مستويات السرد المتعددة التي

---

(١) د. حميد الحمداني، النقد الروائي والإيديولوجيا، ط١، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٠، ص٣٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تتقاطع وتشكل على مدى السيرورة السردية السرد الكلي ورؤيته للعالم، حيث اشتركت ستة مستويات سردية في تشكيل السرد الكلي، وهذه المستويات هي مستوى السرد العادي (الأساسي) الذي يوجد فيه سارد يروي تجربة بضمير المتكلم عن زيارة له إلى السد العالي في أسوان فترة بنائه بقصد تأمل هذا الصرح المعماري- التنموي الضخم ومعرفة تكوينه كاملا وآلية عمله وكذلك معرفة أوضاع العمال المصريين العاملين فيه، كذلك قام السارد في نهاية السرد برحلة إلى الأماكن الأثرية في (أبو سنبل) أحد أهم الأماكن الأثرية الفرعونية في مصر، والمستوى السردي الثاني يتحدث عن ذكريات السارد في المعتقل السياسي أواخر الخمسينات حتى أواسط الستينات يشير فيها إلى التعذيب الشديد الذي وقع للسارد ورفاقه في المعتقل-وهم اليساريون المصريون وبخاصة الشيوعيين الذين ينتمي إليهم السارد. وقد عني هذا المستوى السردي بإظهار الألم النفسي والإحباط المعنوي الرهيبين اللذين لحقا بالمعارضة المصرية والمثقف المصري على يد سلطة وطنية مصرية، ومن الناحية التقنية فإن هذا المستوى السردي لا يسوّغ له السارد أو المؤلف مسوّغا تقنيا ما في السرد الأصلي ليكون مبرراً تقنياً -أي أن القارئ يجد هذا المستوى السردي المغاير قد اقتحم فجأة السرد الأصلي - وبمواصلة القارئ قراءة الرواية يستنتج أن السارد في كلا المستويين هو سارد واحد ومن ثم فهناك ما يربط المستويين، وترد إشارات سريعة في السرد الأصلي لتؤكد الترابط مثل الأحاديث الخاطفة عن السجن والاعتقال والمعارضة وقمع الحريات... في سياق حديث السرد الأصلي عن موضوعه الأساسي (السد العالي). هكذا سيفهم القارئ المستوى السردي الثاني على أنه انقطاعات تحدث في ذاكرة السارد الذي يعيش تجربة في الحاضر (زيارة السد العالي) تحيله عن حاضره لحظياً إلى تجربة عاشها في الماضي القريب في الوطن ذاته الذي يبنى فيه السد العالي، أما المستوى السردي الثالث فهو مقتطفات من كتاب عن سيرة وفن مايكل آنجلو النحات العالمي المعروف حيث تشير المقتطفات إلى آليات فن النحت والقدرات الإبداعية لهذا الفن، وتتولد من المقتطفات السابقة دلالة ذهنية تؤكد على مفهومي المثال (الكمال) والحقيقة المجردة، وهما المفهومان اللذان يحاول الإنسان تحقيقهما ومعرفتهما طوال حياته، أما صلة ذلك بالسرد الكلي فإنها تتضح عند تحليل السرد الكلي، وقد وجد هذا المستوى السردي تسويغه التقني داخل السرد الأصلي عندما يخبرنا السارد (في السرد الأصلي) أنه سيقرأ في كتاب مايكل آنجلو.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والمستوى السردي الرابع يتحدث فيه السارد ذاته عن أجزاء من تاريخ الفراعنة في مصر حيث تُعنى الأجزاء المقدمة بإظهار بنية السلطة الحاكمة عندهم وسمتها الأساسية (التسلط-الاستعباد)، وحيث يمكن فهم دور هذا المستوى السردي ضمن الدلالة الكلية للعمل عند قراءة التحليل الكلي، ولا يجد هذا المستوى السردي مسوغا تقنيا له في السرد الأصلي، أي أنه قطع مباشر له يدفع القارئ إلى ربط هذا المستوى برؤية العالم مباشرة، وهي الرؤية التي يقدمها السارد والمؤلف معا، وهنا نرى سمة مهمة للرواية الجديدة وهي انطلاقها من رؤية الكاتب الفردية باعتبار هذه الرؤية هي أهم ما في الرواية، أي شكلها وموضوعها. ولذلك فلا يتردد السارد أو الروائي في تقديمها أو تقديم بعض عناصرها فنيا بشكل مباشر لأنه لا يجد عيباً في ذلك وهو ما سيتضح فيما بعد.

ويقدم المستوى السردي الخامس ذكريات للراوي عن طفولته وشبابه في مصر حيث تهتم تلك الذكريات بإبراز الطفولة من جانبها السعيد وإبراز الشباب من جانب كونه إقبالا على الحياة حيث تتولد دلالة أساسية من هذا المستوى السردي المرتكز إلى الطفولة والشباب... هي دلالة انتماء هذا الراوي إلى وطنه المصري وبعمق، فهو يربط ذكرياته عن شبابه بنضاله ضد الإنجليز، وينبغي الإشارة إلى أسلوب اللمح في هذا المستوى السردي -ومن ثم فإن الحديث عن الطفولة والشباب سيكون في معالجتنا التحليلية الجزئية والكلية له بالتركيز على الدلالة المتولدة من النص -وهي الدلالة التي اعتبرناها الانتماء العميق للوطن المصري، وهي التي ستتضح أكثر عندما نفهمها ضمن التحليل الكلي، وتقنيا فإن هذا المستوى يدخل كقطع مباشر للسرد الأصلي دون أي تسويغ له في السرد الأصلي.

أما المستوى السردي الأخير وهو (القسم الثاني) من الرواية فهو مركب يتركب من مستويات السرد السابقة كلها فهو يصهرها معا دون أية فواصل، ويظن من يقرؤها في المرة الأولى أن لا ترابط بينها وأن سرداً بهذه الطريقة لا يعني إلا الجنون* - ولن يمكن فهم الدلالة الكلية لهذا المستوى إلا ضمن التحليل الكلي الذي سيرد، وتقنيا فإن هذا المستوى لا يجد تسويغا تقنيا له في السرد الأصلي.

---

* يقول توماس مان (مؤلف رواية أسرة بودنبروك) عن كتابة الرواية أنها "شيء لا يمكن التلاعب به، إنها ليست عملا يختاره المرء متى شاء، الكتابة هي اللعنة بعينها !"
س. ر. مارتين، ت: تحرير سماوي، في تجربة الكتابة، ط٢، دار الكلمة، بيروت، ١٩٨٣، ص٦٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إن ما نراه إذن ترابط سردي أساسه الذهن وعلاقاته، فالمؤلف يحيلنا مباشرة إلى علاقات ذهنية دون أن يعبأ بالتقنية السردية بمفهومها التقليدي، ودون أن يلغيها فذلك ليس بمقدوره إن أراد (المؤلف) البقاء في الدائرة الروائية التي يعد التكنيك فيها "الوسيلة الوحيدة التي لدى الكاتب لكي يكتشف ويستكشف ويطور موضوعه ولكي ينقل معنى تجربته وأخيرا لكي يقيمها."(١) ، أي أن صنع الله إبراهيم يجدد أو يطور في مفهومه للحبكة، فهو يقول صراحة أن روايته هي رواية رؤية فردية تقوم علىعلاقات ذهنية مباشرة (مباشرة تعني حبكة غير تقليدية ولا تعني سطحية او بسيطة) يطرحها السارد ومن ورائه المؤلف، وحيث نلاحظ تماهيا بين شخصيتيهما فتاريخ شخصية السارد وواقعها ينطبقان تماما على سيرة حياة المؤلف.

ولم يخلّ البناء الفني السابق بالرؤية الروائية أو بمفهوم الفن الروائي إذا نظرنا إلى الموضوع من مقاييس الرواية الجديدة التي تسمي البناء الفني للرواية سردا متعدد المستويات، وتميزه بمنظوراته المتعددة للموضوع الواحد وهو ما يثري معالجة الموضوع (الذي سيتضح في التحليل الكلي)، فالفعالية الإبداعية واحدة من أخصب الظواهر الإنسانية، وأكثرها قدرة على إثارة احتمالات التفسير والتأويل في كيفية تكونها وفي عناصرها الأساسية، وفي ما تنطوي عليه من دلالة، وما تؤديه من وظائف.(٢)

وانسجاما مع البناء الفني السابق لاحظنا ضعف حضور الحدث بشكله التقليدي، لكنه حضر بشكل آخر، فبناء السد حدث، واعتقال الراوي ورفاقه وتعذيبهما حدث... وما إلى غير ذلك هو أحداث عادية جداً، ومن ذلك نرى أن قيمة الحدث في هذه الرواية تتحقق عبر العلاقات الفكرية (أفكار الرواية وفكرتها الكلية –راجع التحليل الكلي) ولا تتحقق لذات الحدث، ولا يعني ذلك نفي القيمة الذاتية للحدث إطلاقا فهذا غير ممكن.

---

(١) وليام أوكونور، ت: نجيب المانع، أشكال الرواية الحديثة، ط١، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨٠، ص٢٦.

(٢) عبدالله إبراهيم، المتخيل السردي، ط١، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٠، ص٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شخصيات الرواية.

- الراوي.

إن تحديد معالم شخصية السارد في هذه الرواية سيكون بشكل أساسي عبر وجهة النظر الكلية التي تطرح في الرواية، فالسارد في هذه الرواية يطرح وجهة نظر عميقة، معقدة، ومباشرة، يمكن رؤيتها في ما جاء في التحليل الكلي وفي (الحبكة والأحداث)، ويقف المؤلف بالطبع وراء السارد، وأكثر من ذلك فإن التماهي واضح بين الشخصيتين كما ذكر في (الحبكة)، والمؤلف يرسم لنا شخصيته أو نفسه (إن شئنا) من خلال المنظور السياسي الاجتماعي الفلسفي العميق المعقد الذي يرى من خلاله التجربة السلطوية التي جمعت في آن واحد السد العالي والسجن السياسي، فنحن أمام سمات لشخصية هي مثقفة وذات بعد إنساني عميق.

فهذه الشخصية هي شخصية المعارضة المصرية بشكل عام لنظام جمال عبدالناصر، وشخصية المعارضة الشيوعية بشكل خاص أي شخصية صنع الله إبراهيم، ويتضح أن محور الخلاف بين الطرفين هو الديمقراطية قبل أن يكون أي شئ آخر، ويظهر ذلك من نوعية الطرح الروائي وهو الاحتجاج على اجتماع السجن والسد (راجع التحليل الكلي) وحيث يُظهر السرد الكلي الأسى العميق الذي يتغلغل في كيان السارد جراء تحجيم كيانه الفردي والإنساني بطريقة قاسية وعنيفة هي الإلغاء (السجن، التعذيب) لا لذنب إلا لمعارضته السياسية بوسائل سلمية... وتدفع هذه الروح الجريح للسارد القارئ إلى الاعتقاد بأنها كانت العامل الفعال في إنتاج هذه الرواية العميقة، وهو ما ينبغي أن يلفت إلى حساسية موضوع الرواية وأهميته القصوى، فهذه الرواية ليست تعبيرا ساذجا أو انفعاليا من أحد معارضي عبدالناصر، وليست رواية معادية لعبدالناصر باعتباره ظاهرة، وليست افتراءً وما شابه. هي أولاً رواية ألم إنسان مصري مواطن على أرض مصر له حقوق المواطنة التي لم تمنح له، ويمكن القول أن هذا الألم هو أكثر آلام الإنسان شرعية وأنه رغم الظروف المعقدة التي أحاطت بالتجربة الناصرية فإن غياب الديمقراطية الشاملة في هذه التجربة مبرر كاف لمواجهة هذه التجربة أخلاقيا، وهذا طرح بات مسلمة لدى أبرز المفكرين الاجتماعيين العالميين والعرب... ومن تعريفات النقد الأدبي أنه

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إدراك للقيمة الجمالية يستند أصلا إلى الحساسية الفنية، وهو بحث خلافي، وصورة لإثارة الشعور باليقين وليس تقديم برهان علمي. (١)

ومن الناحية الفنية تعتبر هذه الشخصية غير مسطحة، فهي ثرية متعددة الأبعاد وديناميكية، ورغم أن تطور الشخصية أو ديناميكيتها لم يكن حادا في بروزه فإنه موجود ضمناً لأن هذه الشخصية تفاعلت مع واقعها السياسي فناهضته ودفعت ثمنا باهظا جراء موقفها.

احتلت شخصيه "شهدي عطيه" كذلك مرتبة مهمة في هذه الرواية، وشهدي هو أحد رموز الحركة الشيوعية المصرية ومنظرها الأول وقد اعتقل في نهاية الخمسينات في حملة قمع اليسار الشهيرة واستشهد تحت التعذيب في سجون النظام في ١٩٦٠/٦/١٥. وكان استشهاده فجيعة للشيوعيين المصريين الذين يعدونه رمزهم الأول لا سيما أنه ضرب مثلا رفيعا في الثبات السياسي والصمود أمام التعذيب، بل نجد مؤلف الرواية قد أهدى الرواية إليه، دون أن يكتفي بذكره صراحة في الرواية والحديث عن نضاله وصموده، ويمكن القول أن مقتل رجل تحت التعذيب يعد فضيحة للنظام.

هكذا نرى شخصية شهدي تعكس في سماتها العامة السمات العامة للشخصية الأساسية ولكن من خلال رسم مكثف لبعد واحد فيها هو النضال.

كذلك ظهرت الشخصية الروسية (المهندسون والعمال) في السد ضمن وضع أساسي في الرواية. حيث عنى وجود هذه الشخصية ذاته حالة التعاون والتحالف بين النظامين المصري والروسي في مرحلة تاريخية، ثم عنى انتقاداً مبكراً للإشتراكية الدولية قدمه صنع الله ابراهيم على لسان "تانيا" الروسية العاملة في السد التي اعتقل ستالين والدها حتى مات في المعتقل رغم ان ستالين " لم يكن أكثر منه اخلاصاً وايماناً بالحزب وستالين نفسه"(٢) ، وقدمه كذلك على لسان الراوي والرواية بانتقاده الوقائع السائدة في مصر باسم الإشتراكية، وكذلك التمييز في المساكن والمأكولات والمواصلات... في السد بين المواطن المصري والمواطن الروسي لصالح الأخير.

---

(١) نبيل سليمان، مساهمة في نقد النقد الأدبي، ط٢، دار الحوار، اللاذقية، ١٩٨٦، ص٦١.

(٢) صنع الله ابراهيم، نجمة أغسطس، ط٤، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٨٧. ص ١٣٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما بقية الشخصيات مثل العمال المصريين، والمصورين، والمهندسين، والمعلمين العاملين في السد فقد اكتسبت أهميتها لأن المؤلف رسمها في حالة تعاني فيها الشخصية معاناة مادية شديدة، وخوفاً من النظام البوليسي يفسدان فرحها بالحياة. ورسم السرد تلك الحالة بإظهاره الوضع الاجتماعي البائس الذي تعيش فيه (المسكن، الملبس، المأكل، الراتب،...) وبذكر كلماتها الاحتجاجية العابرة على الوضع العام في مصر (بما فيه قمع حرية التعبير) – حيث يفترض أن تكون نصرة الطبقتين العاملة (الكادحة) والوسطى المصريتين أحد الأسباب الأساسية لقيام الثورة الوطنية المصرية. فالمؤلف بذلك يثير سؤالا حقيقيا حول إنجازات السلطة للطبقتين المذكورتين.

الأسلوب واللغة

في هذه الرواية كانت التعددية الاسلوبية إحدى السمات الأساسية للمعطى السردي الكلي حيث انسجمت التعددية السابقة مع تعددية مستوى القص في العمل.

ففي السرد الأساسي سيطر الأسلوب الواقعي بسمته الباردة والحيادية وبهت حضور الانفعال. ويصف صنع الله إبراهيم نفسه هذا الأسلوب بالتقريري البارد من السطح، مع الاعتناء بأن يكون محددا للغاية، وأن تتطابق اللفظة مع المعنى تطابقا تاما، وأن يخلو تماما من التشبيهات والألاعيب اللغوية والأدبية التقليدية. (١)

وفي سياق الحديث عن السد كان يتجه الأسلوب إلى موضوعية هادئة ورصينة تنسجم مع المادة العلمية للسرد ومكثّفة الإحساس بحضورها العلمي "وتتكشف طبقات الطمي ذات الألوان الحمراء والزرقاء والصفراء تبعاً للأكاسيد المكونة لذراتها الرخوة التي تنهار تحت أبسط ضربة وتتخذ هيئة حبيبات متناهية في الصغر بينها مسافات دقيقة للغاية اذا ما اضيف إليها قليل من المياه تكونت منه بتأثير الجذب الجزيئي بينهما اغلفة ثابتة تحول دون مرور الماء خلال الحبيبات وبذلك تتحول المادة الهشة الى عنصر قوة وتماسك يؤلف ذلك الحائط المنيع في قلب السد المسمى بالنواة الصماء التي تمتد منها فرشة أفقية في جسم السد الأمامي المطل على البحيرة..." (٢)

---

(١) صنع الله إبراهيم، تجربتي الروائية، الآداب، ع٢-٣، ١٩٨٠، ص١٠٢.

(٢) صنع الله ابراهيم، نجمة أغسطس، ط٤، مكتبة مدبولي، القاهرة ،١٩٨٧، ص ١٤١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي السرد الأساسي أيضا ورد الأسلوب الأدبي الفلسفي في مستويين سرديين يخترقان السرد الأساسي هما مستويا السجن ومايكل آنجلو. حيث انسجم الأسلوب السابق مع البنية الدلالية العاطفية والفلسفية للمستويين "الشوارع أنيقة هادئة، والجو رمادي، ومن خروم السلك الذي يغلف السيارة كلها لاح البحر على مبعدة، وتطلع إليه في لهفة قائلا إنه يعشق هذه المدينة ففيها ولد وقضى أيام صباه قبل أن يبدأ هذا كله، وارتفع البحر أمامنا حتى غطى صفحة الأفق بأمواج خضراء يغلفها زبد أبيض، ولانت قسمات الوجه الذي يبدو أحيانا كأنه قد من الجرانيت وابتسمت عيناه في عبث الأطفال وأشواقهم،..." (١)

وجاء القسم الثاني خليطا إبداعيا يمزج الأساليب السابقة كلها في مركب سردي واحد هويته الأسلوبية اندماج الأساليب السابقة معا في فضاء اجتماع ممكن هو اللغة/ الفكر في محاولة فهم لتجربة الحياة على الأرض ذاتها وهي التجربة القائمة على الاستقلال والتكامل لعناصرها في آن واحد على نحو ما سنرى في القسم الثاني.

وفي القسم الأخير من الرواية جاء التنوع الأسلوبي فيه صورة مشابهة لدلالات التعددية الأسلوبية في القسم الأول.

ونتبين أسلوبا رمزيا أيضا تحقق بمفردة جوهرية (السد) الذي احتوى على دلالات موضوعية ورمزية جعلته مركز علاقات الرواية ومفتاحها -كما سنرى في التحليل. كذلك ظهر في (النجمة) أسلوب تضمين النص بنص آخر كما في مقاطع آنجلو.

ويمكننا أن نخلص الى القول إن هذه الرواية تمثل جهدا إبداعيا وأسلوبيا رفيع المستوى وتنظيماً ذهنياً معقداً عبر سردٍ كانت براعته الحقيقية تعدد مستوياته السردية - الأسلوبية.

البنية الدلالية

إن العثور على قراءة نقدية جزئية وكلية لهذا العمل فعل جد دقيق وشائك نظرا للمرونة الكبيرة للشكل الروائي القائم وعبر تقنية السرد متعدد المستويات، حيث حملت هذه المرونة محتوى لغوياً واسعا ومتنوعا في عناصره وعوالمه بحيث لا يضحي من السهل إيجاد الترابط البنيوي الدلالي بينها.

---

(١) صنع الله ابراهيم، نجمة أغسطس، ط٤، مكتبة مدبولي، القاهرة ،١٩٨٧، ص ٦١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ففي القسم الأول من هذه الرواية لا تلفت رحلة الراوي إلى السد القارئ إلى شيء بقدر ما تلفت إلى الوصف الدقيق الذي يسرده الراوي وغيره عن السد من حيث هو مشروع مادي محض (جدواه التنموية، عناصره المكونة، آلية عمله،...) ثم وصف الآلات المشتركة في البناء وآلية عملها ووصف العمال وجهودهم.

وأمام المسرود السابق يتهمش الوصف الروائي للوضع الاجتماعي العام على لسان الراوي أو الشخصيات، كذلك الانتقادات السريعة والعابرة لهذا الوضع، الطبقية والجنسية والسياسية، كذلك فإن الانتقادات التي وردت في القسم الأول لا يمكن أن يؤدي جمعها بما هي عليه وضمن كل التركيبات الاحتمالية الممكنة لاجتماعها إلى تشكيل بناء روائي أو منطلقات سردية دالة على نظام اجتماع العلاقات الكلية (كيفية تشكل وجهة النظر الكلية). مثل الانتقاد للمساكن الشعبية الضيقة والمحاطة بالقاذورات في بداية الرواية ومثل انتقاد بناء فيلات فخمة لكبار رجال الحكومة (الاشتراكية) بأسعار بخسة لا يتصورها عقل (١) ، ومثل انتقاد تفرد الناصريين بالحكم من اثنين من المعتقلين السياسيين الشيوعيين داخل السجن من خلال الحوار التالي :

"- رأيك في الحكومة؟

كأنما يمكن أن تخاطب بالمنطق رأسا جنت بالسلطة،

- هل تنوي استخدام العنف؟

الكتب بيني وبينه هي الدليل الوحيد"(٤٥:١)

ويلفت القارئ بدرجة ثانية في القسم الأول عنصران سرديان آخران هما مقاطع تقطع النص الأصلي يتحدث فيها الراوي ذاته عن ذكرياته في السجن السياسي، حيث تفرض هذه الذكريات عالمها الخاص، بقسوته وبشاعته اللتين سيطرتا على السجين السياسي وعالمه الداخلي بما يقع عليه من تعذيب وبسبب حالة السجن ذاتها.

"الحارس الملول في سترته الصفراء يقرع القضبان الحديدية بمفتاح، وننطلق في طابور ينوء بحمل جرادل البول لتفريغها ثم نعود بجرادل المياه لملئها، والتفتيش الدقيق بحثا عن ورقة أو قلم أو جريدة، ثم نتابع صوت المفتاح وهو يدور في أقفال الزنازين،

---

(١) صنع الله ابراهيم، نجمة أغسطس، ط٤، مكتبة مدبولي، القاهرة ،١٩٨٧، ص٣٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يحبس في كل زنزانة جانبا من ضجة العنبر حتى يسود الهدوء التام، ونجلس على الأرض مستندين بظهورنا إلى الجدران المثلجة نتابع من قضبان الكوة الصغيرة ضوء الغروب وهو يتلاشى بسرعة، والليل طويل طويل لكنه مهرب من نهار مليء بالمفاجآت"(١)

والعنصر السردي الثاني هو مقتطفات من سيرة النحات العالمي مايكل آنجلو حيث تبرز المقتطفات قدرة كامنة في الصخر وفي الفنان تجعل كليهما يحاول إنطاق الآخر. ويعجب القارئ للحساسية الفنية التي تقيم علاقة حميمة فريدة بين الصخر والإنسان.

"قال له أساتذة القصر أن موضوعه الأول يجب أن يكون إغريقيا من أساطير اليونان لكنه كان يعرف عن يقين أن موضوعه الأول لا يمكن أن يأتي من أثينا أو مصر أوروما أو حتى بلدته فلورنسا وإنما من داخله هو. شيئا ما يعرفه ويشعر به ويفهمه. واختار المادونا والطفل. في كل اللوحات التي رآها من قبل كانت العذراء تبدي الدهشة التامة عندما أبلغها جبريل بنبأ الحمل، فهل يعقل أنها لم تكن تعرف، وأنها لم تكن تملك حرية الخيار لترفض؟ وقرر أن ينحتها وهي ترضع طفلها مدركة المصير الذي ينتظرهما"(١:٣٧،٣٨)

قراءة التجاور

"إن الأثر الأدبي بنية ألسنية تتحاور مع السياق المضموني تحاوراً خاصا، معنى ذلك أن النص الأدبي يفرز انماطه الذاتية وسننه العلامية والدلالية فيكون سياقه الداخلي هو المرجع لقيم دلالاته.. وغدا ذلك معياراً لتمييز الخطاب الأدبي عن الوثيقة الموضوعية"(٢)

---

(١) صنع الله ابراهيم، نجمة أغسطس، ط٤، مكتبة مدبولي، القاهرة ،١٩٨٧، ص٣٩، ٤٠.

(٢) د. عبدالسلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب: نحو بديل ألسني في نقد الأدب، ط١، الدار العربية للكتاب، ليبيا-تونس، ١٩٧٧، ١١٠، ١١١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ففي رحابة الفضاء النقدي السابق تبدو قراءة التجاور هي القراءة الحقيقية التي تجمع عناصر التكوين الثلاثة للسرد في القسم الأول؛ والتجاور يجد تسويغه بأنه إنتاج مؤسسة واحدة -هي مؤسسة النظام الحاكم. فثمة رابط قوي بين اثنين من المكونات السردية (الرحلة إلى السد ووصفه، والسجن السياسي) هو كونهما نتاج المؤسسة الحاكمة الحاكمة وفلسفتها... فالسرد معنيّ بتجاور هذين العنصرين معا (السد و السجن) في بناء اجتماعي واحد، وهذا التجاور هو المعنى -هو المشكلة في عالم هذه الرواية.

وقبل أن يذهب الباحث وراء تأويل أكثر عمقا لهذا التجاور فإن التجاور ذاته يلفت إلى محتواه في أحد عنصريه بشكل يجعل في المحتوى سرا خاصا به يوحي بكونه علامة بل علامات على عالم برمته، فمستوى السرد الاساسي في القسم الأول الذي يصف المشروع التنموي (الاستراتيجي) والتقنية التي تنظم تكوينه وعمله، وآلات بناء السد وعملياتها، والعمال وظروفهم المعيشية -هو المستوى السردي اللافت... الذي سيتم التعامل معه باعتباره مادة قائمة بذاتها في تأويل خاص بها هو المنطلق الأساسي في تأويل السد ضمن العلاقات الكلية للعمل.

إن سرداً وصفيا دقيقا، شاملاً، معقدا، علميا وميكانيكيا بحتا لموضوع السد - المشروع الوطني المصري الاستراتيجي، هو النواة السردية الكبرى للقسم السردي الأول، وهي النواة التي لا يمكن تأويلها تأويلا بسيطا ثم الانطلاق إلى تأويلها ضمن علاقات العمل الكلية؛ والسبب هو أسلوب بناء السرد الوصفي للسد (الأسلوب العلمي المذكور سابقاً) الذي سيكون في التأويل النقدي له ذا أهمية نابعة من موقع صدوره، وهو الموقع الذي يمكن تعيينه اجتماعيا تقدميا يظهر اجتماعيته التقدمية بالمظهر العلمي لها، فالموقع يبرز قدرته المتقدمة على هذا الصعيد وهو موقع الراوي وإيديولوجية الرواية. وفي سياق التأويل الكلي للسد لن تنفصل سمات موقع الصدور المعينة سابقا عن مجسد موضوعي لها هو السد، فالسد أحد مظاهر التقدم العلمي والإنساني* ؛ أكبر مشروع تنمية اقتصادية في مصر المعاصرة، أنجزه الحكم الوطني الناصري.

---

* يقدم د. بطرس حلاق رؤية مغايرة للسد إذ يعده علامة على استلاب الانسان أمام الآلة في المجتمعات الصناعية أو التي دخلتها الآلة، ويذهب إلى أن (نجمة أغسطس) استيراد تقني (وبالتالي موضوعي) لعالم غير واقعي (وهو ما تخالفه وجهة الباحث هنا). د. بطرس حلاق، الدائرة وتخلخلها في نجمة أغسطس، مجلة الباحث، ع٤، كانون الثاني شباط ١٩٧٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

السد في علاقة بناء اجتماعي شامل

إن السد الذي ينطوي تحققه المادي على مفهوم ومعيار حضاريين متقدمين صادر بالضرورة عن وعي اجتماعي منتج له، هو الوعي الحاكم، الذي قارف وعيا آخر تحقق مادياً أثناء سيرورة التحقق المادي للسد - فأنتج السجن السياسي والقمع لمعارضة يسارية يمثل الراوي ورفيقه شهدي رمزين من رموزها منذ أواخر الخمسينات حتى أواسط الستينات.

إن التزامن السابق هو شكل السؤال العميق والأساسي لهذه الرواية: كيف يكون السد- الإنجاز الإستراتيجي منطويا على مفهومه ومعياره الحضاريين المتقدمين؛ باعتبار السد أحد أوجه البناء الاجتماعي الأساسية، في حين يعاني البناء الاجتماعي في وجه آخر من وجوهه (قد يكون أهم وجه من وجوه البناء الاجتماعي) من اختلال مريع يتعارض مع فكرة التقدم وحالته، وهو الوجه السياسي، إذ تعيش العملية السياسية- السلطوية أزمة خطيرة بسبب تفرد النظام وأنصاره بالحكم ووضع المعارضة في السجون وإخضاعها للتعذيب داخلها ؟*

تمثل المقاطع السردية التالية عن ذكريات الراوي ورفاقه في السجن الاختلال السابق وتشهد على وقوع الانتهاك لآدميتهم لأنهم معارضون سياسيون" الجنود صفان متقابلان كعهدهم دائما، وعصيهم الغليظة تشق الهواء جزافا، واليحة المتوحشة تأمر بالجري بينهم حتى الساحة، وهناك استقرت منصة مرتفع جلس خلفها الجنرال بملابسه العسكرية والشارة الحمراء التي تدل على رتبته الرفيعة، وحوله النظارة الذرني جاؤوا خصيصا ليشهدوا الحفل وقد ارتدوا جميعا نظارات سوداء، وانهالت الضربات على الرؤوس والصدور والظهور بالقبضات والأقدام والعصي والأحزمة الجلدية والنبابيت والشوم وكعوب الأحذية العسكرية، وجرد الضحايا من ملابسهم واقتيدوا واحدا بعد الآخر أمام الجنرال ليتفقد بعينيه أحجام رجولتهم، ثم سحلوا عراة فوق الرمال حتى الوحش الآدمي ذي العينين المجنونتين الذي اندفعت قبضته السمينة في الهواء وقد لمعت فوقها

---

* يرى د. خلدون النقيب أن الناصرية بإرهابها المنظم عبر الدولة ومأسستها للعنف المسلح قد نجحت بالفعل في النصف الأول من الستينات في إفراغ العملية السياسية من المعارضة المنظمة. د. خلدون النقيب، الدولة التسلطية في المشرق العربي المعاصر، ط١، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩١، ص١٥١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بقعة من الدماء الطازجة، وبعد ذلك كان الدوران عشرات المرات حول العنبر الطويل، وداخله كانت هناك الارض الحجرية العارية والدماء التي تنزف من الظهور والهذيان وفقدان الوعي، وفي المساء أضيء النور فتبدت معالم المكان وظهر الفراغ الذي تركه إلى الأبد الجسم العملاق والوجه الذي لم تفلح آثار الجدري في تشويهه"(١)

ويولّد التزامن السابق سؤالاً ثانياً: كيف يمكن تسويغ اللا انسجام القائم في الموقف العام للحكومة نفسها والدولة نفسها والفلسفة المسيّرة لهما نفسها:

- سلوك تنموي-استراتيجي إيجابي (السد).
- سلوك سياسي داخلي سلبي (القمع للمعارضة السياسية السلمية) ؟

فالسلوك الإنساني بكل أنواعه يترابط وظيفيا في العملية الاجتماعية الوجودية العامة، وفي الحالة التي يختل فيها الأداء الوظيفي لأحد أنواع السلوك أو أكثر فإن العملية الاجتماعية تتأثر سلبا أو تختل برمتها. وهكذا يفضي أساس العلاقة المنطقية والفنية المبنية على تجاور السلوكين السابقين إلى تحديد أكثر دقة لسؤال الشكل الروائي: هل يمكن إقرار الازدواجية في القيم الكبرى كالحق والعدل والحرية... فتمارس في عالم الإنسان الاقتصادي دون عالمه السياسي؟

ولايمكن، ضمن بنية وجودية تقوم على الترابط الوظيفي، وضمن فهم التقدم على أساس الموقف من الإنسان: احترامه، السعي لمصلحته وسعادته، إقرار تلك لازدواجية؛ فالعالمان غير قابلين للفصل عن بعضهما بعضا أصلاً إذ لا يحتاج الإنسان الإشباع المادي المتكامل وحسب بل يحتاج الحرية الاجتماعية الشاملة: التعبير، التشكيل الحزبي، تداول السلطة، الجسد،... تماماً كما يحتاج المادة... ويمكن القول أنه بدون الحرية الاجتماعية بالذات تفقد الحياة معناها؛ إذ يقمع الكيان المعنوي للإنسان إلى حد الإلغاء. مع الإنتباه الى أن حالة الإشباع المادي المتكامل (سَوية البعد الإقتصادي في الدولة) هي فكرة افتراضية - أي أن الإشباع غير حاصل* (ثمة إشارات سردية كثيرة في الرواية تنتقد السياسة الاقتصادية الحكومية والوضع الاقتصادي المتردي المترتب عليها (إشارات ذكر بعضها

---

(١) صنع الله ابراهيم، نجمة أغسطس، ط٤، مكتبة مدبولي، القاهرة ،١٩٨٧، ص ١٢٩.

* يرى د. محمود أمين العالم أن "الأزمة الدرامية" في نجمة أغسطس أزمة انعدام الديمقراطية في المجتمع الذي يحاول أن يبني حياة إنسانية تقدمية جديدة. د. محمود أمين العالم، ثلاثية الرفض والهزيمة: دراسة نقدية في ثلاث روايات لصنع الله إبراهيم، ط١، در المستقبل العربي، القاهرة، ١٩٨٥، ص١٢٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في مواضع سابقة في لتحليل) تعزز فكرة الأداء الاقتصادي السلبي للسلطة، ولنأخذ بشكل خاص الظروف الاجتماعية المزرية للعمال الذين يعملون في السد فهم يحيون في حرمان وشقاء وتفتك بهم الأمراض... راجع القسم الأول من الرواية).*

ويتمثل مركز القوة الذي تستند إليه إيديولوجية الرواية في التقائها مع الجانب التقدمي للسلطة إن وجد، لذلك اجتهدت الرواية في توظيف عنصر السد اجتهاداً يثنى عليه، وتلك هي الأهمية الحقيقية لوجود عنصر السد في هذه الرواية فهو رمز لتقدمية المعارضة اليسارية وإيديولوجيتها قبل أن يكون رمزا لأي شيء آخر؛ فالمعارضة هنا معنية بقضية التقدم لا الحكم (كما تقول) وهي تؤكد على لسان زعيمها شهدي عطية في مرافعته عن نفسه في محكمة أمن الدولة أنه: "لا يمكن أن يعادي حكومة تبني السد، غير أنه كان عبثا أن راح يجادل السلطة بالمنطق" (١) ، وحيث تعني عبارة تبني السد في السياق السابق عبارة تبني التقدم وتساويها فإن المواجهة الحقيقية والحادة في هذه الرواية هي للسلطة في دعواها التقدمية.*

يرى إنرك أندرسون إمبرت في كتابه "مناهج النقد الأدبي" أن الفهم النقدي للترابط الوظيفي لعناصر العمل الأدبي ينبغي أن يكون تقويما أكثر منه شيئا ينتسب إلى عالم الظواهر، ويكون ذلك طبقا لبعض قواعد التعبير وصلابة البناء" (٢)

يأتي دور المستوى السردي الخاص بمقتطفات مايكل آنجلو لتأويله في العلاقة الكلية، حيث نرى إلحاحاً من إيديولوجية الرواية على إظهار منطقية منطلق معارضتها

---

* ثمة كثير من الدراسات العلمية المتخصصة تظهر جوانب سلبية متعددة في الاقتصاد الناصري مثل الدولة التسلطية في المشرق العربي المعاصر -د. خلدون النقيب، المجتمع العربي المعاصر- د. حليم بركات، وغيرهما كثير.

(١) صنع الله ابراهيم، نجمة أغسطس، ط٤، مكتبة مدبولي، القاهرة ،١٩٨٧، ٩٤.

* يرى د. سماح إدريس أن جيل صنع الله إبراهيم الروائي (جمال الغيطاني، إبراهيم أصلان، عبدالحكيم قاسم،...) متقارب مع المشروع الناصري في المسائل القومية العربية أشد منه في المسائل المحلية، لكنهم يدينون احتقاره للديمقراطية ونهجه الخاص في الاشتراكية وسوء معاملته للمثقفين.
سماح إدريس، المثقف العربي والسلطة : بحث في روايات التجربة الناصرية، ط١، دار الآداب بيروت، ١٩٩٢، ص١٥٢.

(٢) إنريك أندرسون إمبرت، ت: د.الطاهر أحمد مكي، مناهج النقد الأدبي، ط١، مكتبة الآداب، القاهرة، ١٩٩١، ص٥١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

للسلطة دون أن تتجنى على إيجابياتها... ضمن الحدود السابقة التي رأيناها؛ فثمة إيحاء رمزي أساسي متحقق في معطيات علاقة الاستنطاق المتبادلة بين الإنسان والصخر في نصوص آنجلو "الصخر هو السيد وليس الرجل. القوة والمتانة في المادة الصماء لا في الذراعين والأدوات. وإذا ما ضرب بعنف وجهل فقدت المادة الغنية توهجها وماتت. وأمام التعنيف والهرولة تلتف الصخرة بنقاب حجري صلب. من الممكن تحطيمها بالعنف ولكن يستحيل إرغامها على أن تعطي. فهي تستسلم للحنان وتزداد تحت تأثيره إشعاعا ولمعانا". (١)

ذلك الإيحاء الرمزي يشير بقوة إلى مفهوم المثال وإلى قيمة الجمال المطلقة، فإذا التفتنا إلى كون السد العالي علاقة بشرية مع حجر فإن التداخل الرمزي بين مستوى السرد الأساسي ومستوى مقتطفات آنجلو يكشف عن تعاكس حاد واضح في غاية علاقتين في الرواية :

- تتجه علاقة آنجلو بالصخر إلى احترام الإنسان وإسعاده بإطلاع الإنسان كتابة ونحتا على الأشكال والقيم الجمالية في عالمه.
- لا تتجه علاقة السلطة بالسد (الصخر) إلى احترام الإنسان وإسعاده بسبب اختلال سلوكها السلطوي العام تجاه الإنسان المصري.

مما سبق نتبين اتجاها إنسانيا لدى الرواية يصر على مساواة التقدم بإنسانية الإنسان (التقدم = إنسانية الإنسان)، فإنسانية الإنسان هي الإيديولوجيا العميقة للرواية(وهو ما سيؤكده تحليل القسم الثاني من الرواية). ونرى في هذه الرواية أن إنسانية الإنسان تتخذ أبعاداً شاملة فهي المنطلق والوسيلة والغاية.*

في القسم الثاني من الرواية (تسع صفحات فقط) يُلفت القارئ إلى بعديه الظاهريين الأساسيين:

---

(١) صنع الله ابراهيم، نجمة أغسطس، ط٤، مكتبة مدبولي، القاهرة ،١٩٨٧، ٣٣.

* يرى دكتور بطرس حلاق ان فعل الابداع في الصخر تأسيس لحركة جديدة مبنية على هذا الفعل ليتكون فعل الابداع في الحياة الكلية. د. بطرس حلاق، الدائرة وتخلخلها في نجمة أغسطس، مجلة الباحث، ع٤، كانون الثاني شباط، ١٩٧٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١- يقوم السرد في هذا القسم على جملة واحدة بلا فواصل (طولها ٩ صفحات) يكونها دون ترتيب (نظام) مقاطع مختلفة في محتوياتها تتقاطع ليتلوها مقاطع مختلفة غيرها تتقاطع بدورها وهكذا. وتُصنف أبرز محتويات المقاطع :

- السد- الوصف له.
- ذكريات السجن ومقتل شهدي تحت التعذيب.
- كلمات آنجلو ومقتطفات من التاريخ الفرعوني.
- ممارسة عاطفية -جنسية بين الراوي وفتاة روسية.

٢- أسلوب أدبي عالٍ جدا لا ينافسه في ذلك أي جزء من الرواية.

في محاولة إدخال القسم السابق في العلاقات الكلية للسرد سَيعد الباحث القسم السابق (بناءً على طبيعة بعديه) وظيفة فلسفية تعزز إيديولوجية العمل؛ فالصراع الاجتماعي الذي يجابهنا به الوعي الروائي في نجمة أغسطس يتجه إلى خلق وعي فوق وعي الصراع الأساسي - من شدة عنف الموقف !

لنأخذ الاقتطاف التالي من القسم الثاني :

" .. حتى يترسب الحزن طبقات من الصخور المفتتة والرمال تكومت تلالا إلى جوار مخرج النفق تحت أقدام درج عمودي ضيق صعدت عليه أربعين درجة حتى بدأت ألهث وكدت أفقد توازني عندما نظرت إلى أسفل ورأيت الدائرة الخرسانية الكبيرة تحيط بها شبكات من الأسلاك والقضبان الحديدية أشرعت أطرافها في الهواء لكن رأسه تجاوزتها ارتفاعا والتفت أصابعه الطويلة حول أسنتها وكان عبثا أن راح يجادل بالمنطق ويتساءل كيف يمكن أن يتآمر أحد ضد حكومة تبني السد ففي الأعلى أسند الجنرال قائد الجيوش البرية خده إلى راحته اليمنى مستمتعا بالموقف لأن كل شيء كان جاهزا على الأوراق والحكم معدا للتنفيذ وقديما نصح ميكافيلي بقتل بروتس وأبنائه عندما حلت بالنحات لعنة محكمة التفتيش بسبب قديسيه وشهدائه العراة لم يجده دفاعه بأنها الصورة التي خلق بها الرب آدم ألم يقل لورنزو..."[١]

"... وهي مشاكل مألوفة تقابل التخريم في الأرض غير المتجانسة التي تنوعت مكونات المعادن في بلوراتها يتحطم بعضها إذا ما ضرب الازميل في الصخر ضربة

---

(١) صنع الله ابراهيم، نجمة أغسطس، ط٤، مكتبة مدبولي، القاهرة ،١٩٨٧، ص ١٤٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عشواء ولم أفهم حتى كررت أنها تتألم دائما منذ كانت المرة الأولى قبل سنوات ولابد من الرفق فالمادة الغنية الدافئة تفقد توهجها أمام التعنيف والهرولة وتلتف الصخرة بنقاب حجري صلب يمكن تحطيمه بالعنف لكن لا يمكن إرغامها على أن تعطي فهي تستسلم للحنان وتزداد إشعاعا ولمعانا وتلمست أصابعي سطوح الجسد العاري وثناياه حتى حركت أسها في بطء وشعرت بشفتيها تلينان وأخذ جسدها يتلوى تحت أصابعي وانفرجت ساقاها وهناك كانت متباينة أيضاً وتوقفت الآلة عن الحركة وسرت فيها رعشة خاطفة وتكررت عدة مرات وأخرجوا العمود وهو ..." (١)

فمن خلال تأمل تركيب القسم السابق ومحتواه تتداعى إلى الذهن المعطيات التالية:

- انبهار إنساني بالطبيعة التركيبية والمعقدة للحياة؛ حيث تتداخل المتعارضات كلها من عناصر الوجود لصناعة الماهية الواحدة (الحياة): السد، الدين، السلطة، السجن، الجنس،...
- انبهار إنساني بالتركيب الثنائي للتجربة الحية، بناء/ هدم، سجن/ حرية، ألم/ لذة،...*
- تشبث بالمنطلقات الإنسانية في إدارة الصراع الاجتماعي.
- احتجاج هائل على الموقف في الأرض.*

في القسم الثالث والأخير من هذه الرواية يقوم الراوي برحلة إلى منطقة أثرية سياحية مشهورة في مصر (أبو سنبل)، وكالقسم الأول يخلو هذا القسم من الأحداث ويتمحور السرد الاساسي فيه على وصفه معابد أبو سنبل..، ويتخلل السرد الأساسي

---

(١) صنع الله ابراهيم، نجمة أغسطس، ط٤، مكتبة مدبولي، القاهرة ،١٩٨٧، ص ١٤٢.

* عن صراع الإنسان مع كل الظواهر الثنائية (الحياة والموت، الرجل والمرأة، الصحة والمرض، الغنى والفقر،...) تقول د. نبيلة إبراهيم إن صراع الإنسان مع كل الظواهر الثنائية، وسعيه إلى الوصول إلى حل وسط بينها على الأقل، يمثلان جوهر تفكير الإنسان منذ العصر القديم إلى اليوم، ولا يكاد يخلو منها عمل أدبي أساسه الرؤية الجمالية الصادقة.

د. نبيلة إبراهيم، نقد الرواية، مكتبة غريب، القاهرة، ص٤٥.

* يحس القارئ أمام هذا القسم أنه أمام رواية مصغرة جداً اسمها (نجمة أغسطس) أيضاً، مع فارق المدلولات الفلسفية المكثفة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سردان انقطاعيان أحدهما عن تاريخ الفراعنة والثاني عن تاريخ الراوي في مصر (صباه وشبابه-فترة الاحتلال البريطاني لمصر).

وقد تعينت الدلالة الحقيقية في هذا القسم في السرد الانقطاعي الخاص بتاريخ الفراعنة، فكشفت كثافة الحمولة الدلالية في مقاطع تاريخ الفراعنة عن علاقة هذه المقاطع وهذا القسم بالبنية الدلالية الكلية للعمل، إذ جاء محور سرد القسم الأخير واضحا عن وصف الحياة الاجتماعية عند الفراعنة (قدماء المصريين) بمختلف أبعادها الاساسية، وجاءت المقاطع واضحة في وظيفتها المتحورة حول إبراز مفهوم السلطة وبنيتها عندهم "لا يعرف على وجه التحديد متى سيطرت على ذهن رمسيس الثاني فكرة الألوهية"، (١) "إني أنا رمسيس الذي أخلق وأهب الحياة للأجيال.. إن أمامكم الطعام والشراب وكل ما تشتهيه الأنفس.. إني أدعم مركزكم لتقولوا إن حبكم لي هو الذي يدفعكم إلى العمل من أجلي.. طالما أنتم على قيد الحياة فإنكم تعملون من أجلي رجلا واحدا."

إن صورة السلطة المتشكلة في المحصلة في مصر الفرعونية صورة قاتمة تؤله الفرعون الحاكم وتمركز كل السلطات بيده حيث يعيش الشعب صورة من صور العبودية. وتتطابق الصورة السابقة مع صورة السلطة المعاصرة، وأهمية التطابق السابق ليس لذاته؛ بل لأن صورة السلطة عند الفراعنة تنطوي على تفسير لمعنى السد الذي بنته السلطة المعاصرة- انسجاما مع علاقات الرواية التي أظهرت لاتقدمية السلطة المعاصرة في بعد الحريات والتعددية (وهو بعد مهم جداً).*

لقد اتخذت السلطة الفرعونية طابعا شخصيا تسلطيا؛ لا موضوعيا مؤسسياً؛ حيث جعل هذا الطابع حتى المنجزات المعمارية للفعل الجماعي كالمعابد رموزا لا لفعل الإنجاز الجمعي ذاته بما ينطوي عليه من إبراز فكرة المجموع والعمل لأجلها واحترامها؛ بل رموزاً لسلطة شخص الفرعون الحاكم على الشعب أي لسلطة جبارة مستبدة لأنها تجرؤ أن تنفي الشعب (المجموع) وتثبت الفرد (الحاكم) مكانه.

ويرى د. سماح إدريس أن الإشارات الأليغورية (المجازية) إلى مصر الفرعونية في هذه الرواية تسعى إلى إزالة الأسطورة أو الهالة عن انتصارات السلطة المعاصرة

---

(١) صنع الله ابراهيم، نجمة أغسطس، ط٤، مكتبة مدبولي، القاهرة ،١٩٨٧، ص ١٩٦.

* الترتيب التنازلي لأرقام فصول هذا القسم (الثالث) أي ٤، ٣، ٢، ١ هو توجيه للقراءة نحو اصول او جذور ما، يتضح أنها جذور القمع كحقيقة بشرية على الأرض؛ أي أن حقيقية القمع وتاريخيته العريقة هي الجذور، سواء أكانت فرعونية أم غير فرعونية.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وإنجازاتها وأن نجمة أغسطس توحي بأن حلقات التاريخ يمكن أن تتشابه في الأقل وأن الطغاة يكررون الأكاذيب نفسها. (١)

ويحلل بكلام مماثل محمود أمين العالم هذه العلاقة (الفراعنة، السلطة المعاصرة) في نجمة أغسطس ويفسرها بأنها حكم بالسلب والرفض لكل سلطة مهيمنة في كل زمان -من نجمة أغسطس.(٢)

وفي ضوء الفهم السابق لعلاقة السلطتين (الفرعونية والسلطة المعاصرة) تقودنا إيديولوجية الرواية إلى نهاية ثنائية تقدمي/ غير تقدمي التي شكلت العالم الروائي لتكون غير تقدمي، فيزول التباس السد/ السجن السياسي ليكون السد نفسه السجن السياسي للسلطة المعاصرة (أي موت رمز الثورة /الحلم) فهو رمز قدرة السلطة على تسخير الإمكانات الطبيعية الخلاقة للمجموع لا رمز تحكم المجموع بمصيره العام!

معارضة انتماء عميق

إن منطق المعارضة الحدي الدقيق جداً في آليات بنائه عبر علاقات الرواية الكلية، الصادر عن الهوية الوطنية المصرية ذاتها معني بإظهار انتمائه العميق لهذه الهوية، فهو ينقدها بالكيفية السابقة حرصا على انتمائه لها لا العكس، وهو ما تقوله المقاطع التي تتحدث عن ذكريات الراوي في صباه وشبابه ونضاله ضد الإنجليز على الأرض المصرية (راجع القسم الأخير من الرواية).

❋ ❋ ❋

لقد استندت (نجمة أغسطس)* لصنع الله ابراهيم في دعواها الأساسية ضد السلطة إلى منطق قوي ومشروع يستمد قوته ومشروعيته من قيمة الإنسان الذاتية ومن المنطق اللغوي ذاته؛ فلا يحق للسلطة قمع المعارضة المنطقية. لذلك ولأسباب إبداعية تمثل (النجمة) علامة مميزة جداً (بل فارقة) في مسيرة الرواية العربية المعاصرة ومعها مسيرة معاناة الوطن العربي – من ثقافته وانظمته.

---

(١) سماح إدريس، المثقف العربي والسلطة : بحث في روايات التجربة الناصرية، ط١، دار الآداب، بيروت، ١٩٩٢، ص١٥٥- ١٥٦.

(٢) د. محمود أمين العالم، ثلاثية الرفض والهزيمة، ط١، دار المستقبل العربي، القاهرة، ١٩٨٥، ص١٣٦.

* في أغسطس أشد شهور الصيف حراً كان العمل في السد العالي يمر بأهم مرحلة وهي تشييد النواة الصماء في قلب السد (١٩٦٤).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مخطط توضيحي لإيديولوجيا الرواية في نجمة أغسطس

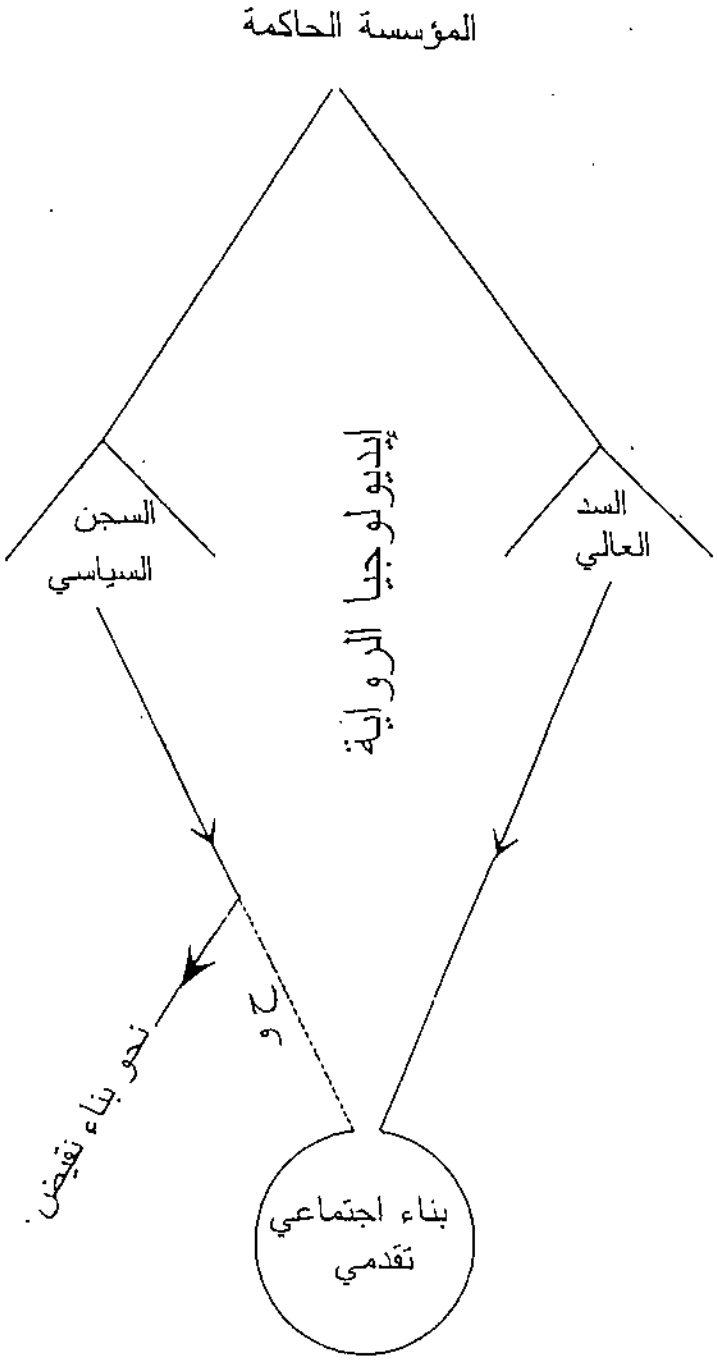

ح و : حركة وهمية

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثالث

اللجنة أو بنية عجز تاريخي

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فكرة الرواية

تدخل هذه الرواية في إطار سردي واقعي يسميه بعض النقاد "قوليا"؛ بمعنى أنه خطاب الأنا المباشر المتضمن أبعادا فكرية منظمة اجتماعية سياسية اقتصادية فلسفية، حيث يكون الخطاب هذا جوهر البنية السردية وبديلا عن الحدث دون أن يلغيه تماما.*

فهذه الرواية صريحة من حيث هي حوار حقيقي وحاد مع التطور الاجتماعي الحديث لمصر بدءًا من ١٩٥٢ (تأسيس أول سلطة وطنية مصرية كاملة) وحتى ١٩٨١ (أواخر عهد نظام السادات -نظام "الانفتاح" الاقتصادي)، وهي حافلة بإحالات تاريخية اجتماعية وسياسية هي أقرب ما تكون إلى الحقائق التاريخية في الزمن المذكور.

ويمكن أن نوجز المسرود الأساسي للرواية كما يلي:

تنشأ علاقة سردية أساسية بين مواطن مصري عادي ولجنة ذات نفوذ اجتماعي شامل يُمثل أعضاؤها الصفوة الاجتماعية المسيطرة (السياسية والاقتصادية والعسكرية) في مصر. تهدف العلاقة من طرف المواطن إلى النجاح في اختبارات اللجنة المتعددة: أسئلة، بحث، ... حيث يعني نجاحه فيها نجاحه في الحصول على وظيفة مرموقة تحسن وضعه الاجتماعي بعامة والمادي خاصة.

يتعامل المواطن مع الاختبارات الشفوية بشكل جيد فيجيب إجابات مقنعة عميقة تؤكد في آن واحد على نفوذ الرأسمالية الأمريكية في مناطق واسعة من العالم وبخاصة مصر وعلى عبقرية قدماء المصريين الذين بنوا الأهرامات. ثم ينشط في كتابة بحث كلفته به اللجنة عن "ألمع" شخصية عربية ومصرية دون تحديد مفهومها للَمعان، يتوصل البحث إلى نتائج أثارت حفيظة اللجنة وذعرها إذ يثبت أن "ألمع" شخصية هي شخصية السياسي الانتهازي والاقتصادي الانتهازي التي احتلت وتحتل موقع السلطة السياسية والاقتصادية أو انتهزت علاقتها الجيدة بموقع السلطة- فكونت ثروة كبيرة هي ليست لها بل للشعب المصري الفقير المعاني.

---

* عن هذا النمط الروائي تتحدث يمنى العيد : تركز اللعبة الفنية في الرواية الحديثة على القول (Discourse) من حيث أنه هو الصياغة للحكاية أو هو إقامة بنيتها الروائية، وبالتالي من حيث هو مجال التقنية، وكيفية السرد أو شكله، ويتراجع الاهتمام بالحكاية من حيث هي فعل لأشخاص تربط بينهم علاقات وتحركهم حوافز، تتحكم بنمو هذا الفعل وتقوده الى عقدة فيه ومن ثم الى حل لها.
يمنى العيد، الرواي : الموقع والشكل، ط١، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ١٩٨٦، ص ١٢٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تحاول اللجنة قتل المواطن على خلفية نتائج بحثه فتفشل لكنه يجد نفسه في قبضة اللجنة التي تقدمه للمحاكمة بتهمة قتل عضو اللجنة الذي حاول قتله، تحكم عليه اللجنة بأن "يأكل" نفسه.

يتخلل علاقة المواطن (الراوي) باللجنة ممارسات تحقيرية تقوم بها اللجنة تجاه المواطن مثل وضع إصبع أحد أعضائها في مؤخرته لاكتشاف ما إذا كان عنينا أم لا، ومثل مطالبته بالرقص للكشف عن إمكاناته في هذا المجال؛ وتهدف الممارسات السابقة إلى إثبات النفوذ الكامل للجنة على المواطن.

يعود المواطن بعد المحاكمة إلى بيته فيرى في طريق عودته مستشفى يستغل الناس ماديا وسيارات أوتوبيس غير لائقة بالبشر وانكباب الناس على شراء زجاجات الكوكا كولا... يحزن المواطن ويغم، يصل بيته حيث يسجل شريطا بصوته يتخيل فيه أنه يخاطب اللجنة مهددا ومحقرا ومعلنا أن سلطانها زائل مهما يطل بها الزمن، ثم يبدأ المواطن "يأكل" نفسه.

احتلت إجابات المواطن عن أسئلة اللجنة وقراءته لمادة بحثه الذي كلف به المساحة الأساسية في السرد الكلي، وهو ما يظهر أن مركز الدلالة الروائية يكمن في المساحة السابقة، حيث يمثل الاقتصاد المصري محور المساحة السابقة ومحور إدانة إيديولوجية الرواية، وتدين الرواية نموذجا سلطويا بكليته إذ هي تدين أداءه الاقتصادي المختل- الذي أسفر عن تبعية اقتصادية خارجية وطبقية فادحة وسياسة داخلية قمعية وسياسة خارجية غير قومية. لأن هذا الأداء صادر عن سلطة كلية منتجة له هي السلطة الوطنية المصرية، كذلك تدين الرواية مجتمع الاستغلال المستشري في مصر بين المواطنين العاديين.

وقد كانت المواد الوثائقية القريبة من مواد الصحف والمجلات المكون الأساسي الوحيد في إجابات السارد للجنة وبحثه كذلك، أي أنها الشكل الروائي في المساحة الأساسية لهذا الشكل، وللخطاب-الوثيقة أهمية خاصة تنبع من ارتفاع درجة حياديته (أو الإيهام بحياديته) ومن قوته الإقناعية - التأثيرية الخاصة (قوة الوثيقة).

إن الإبداعي في هذه الرواية هو القدرة الواضحة للمواد الوثائقية على تشكيل خطاب روائي متماسك حدوده علاقات الاقتصاد المصري الداخلي وتداخلاتها بعلاقات

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

السياسة، وما نجم عن هذا التداخل من نموذج دولة الرأسمالية التابعة، أو نموذج دولة الاشتراكية المأزومة.

وما سبق هو ما يمكن تسميته حدود البنية الدلالية الكلية في (اللجنة) وهي الحدود التي تنتقدها ايديولوجية الرواية وتطلب بديلا عنها إيجابيا دون أن توضحه أكثر من ذلك*، وهي بنقدها ذاك تُشكّل موقعاً مقابلا طبقيا وإيديولوجيا هو الموقع الذي يمثله المواطن (الأنا السارد) ليكون المعنى الأكبر لهذا هو التقابل بين الدولة الوطنية والمجتمع المدني في صراع شامل غير متكافئ (الخاسر فيه هو المجتمع المدني) يُكرّس التوازنات المختلة السياسية والاقتصادية كما سيوضح في تحليل البنية الدلالية الكلية.

الحبكة والأحداث

تتميز هذه الرواية بحبكة مثيرة؛ تقليدية تشد القارئ من البداية إلى النهاية، إلا أن هذه الحبكة فنية أكثر منها موضوعية؛ فالرواية هنا رواية قول يقوم القول فيها بالبناء المعماري العام للرواية ويصنع وجهة النظر الأساسية فيها، دون أن نقصد بذلك انتفاء أية دلالة موضوعية للحبكة بما في ذلك اشتراكها في صناعة وجهة النظر الروائية الكلية. وهذه الحبكة مهما تتفوق فنياً فإن الفن الناجح هو الذي يتضمن انسجاما منطقيا ونسبيا بين التقنية والمحتوى (في الرواية الواقعية)، وهو ما أراه قد تحقق في الحمولة الرمزية للحبكة.

لقد تحققت الحبكة عندما تعرض السارد لعوائق متعددة خطيرة وهو يتجه لتحقيق هدفه كتابة بحث عن ألمع شخصية ... – كلفته به اللجنة مقابل أن يتطور وضعه المادي والاجتماعي إذا ما نجح في الإبداع في هذا البحث– كانت اللجنة ذاتها وراءها (أخطرها محاولة اغتياله). يتجاوز السارد العوائق ويكتب بحثا خطيراً تقلق محتوياته اللجنة فتحاول اغتياله فيرد بدوره على محاولة اغتيال عضو اللجنة له بقتله فيقدم (السارد) للمحاكمة على جريمته، هنا تنتهي الحبكة الأولى لكي يتولد منها حبكة ثانية هي الحكم الذي

---

* يرى د. محمود أمين العالم أن هذه الرواية هي الجزء الثالث من ثلاثية يطرح فيها صنع الله وجهة نظر انتقادية مهمة في المجتمع المصري الحديث تطال السياسة الكلية للدولة المصرية وقيم المجتمع المصري.

د. محمود أمين العالم، ثلاثية الرفض والهزيمة ، ط١، دار المستقبل العربي، القاهرة، ١٩٨٥،ص ١٧٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سيصدر. يصدر حكم عليه أن "يأكل" نفسه، يعود السارد بعد المحاكمة إلى البيت ويبدأ (بأكل نفسه). ورغم أنه بدأ (يأكل نفسه) إلا أنه تكلم ضد اللجنة وأهدافها وبيّن ماهيتها، وأهمية مقاومتها، ووشك انهيارها .

وعلى هذا النحو نلاحظ أن الحبكة بتفرعاتها حملت مضامين رمزية تكتسب دلالاتها الموضوعية إذا فهمت ضمن الإطار الكلي للعمل – وتحديداً من خلال المساحة السردية الكبرى (القول) الذي يجعل تفسير تلك الرموز ممكنا ضمن بنية الدلالة الكلية للعمل، وهو ما تم التفصيل فيه في التحليل الكلي، وجدير بالاهتمام أن هذه الحبكة منحت العمل سمة التشويق، وسنوضح العلاقة بين دور الحبكة المهم وفنية الرواية في ما سنورده عن أسلوب الرواية.

شخصيات الرواية

في رواية القول يمكن أن تتراجع الشخصية في حضورها الروائي، ولن يعني التراجع بحال من الأحوال تغييباً كليا لها؛ إذ سيظل موقع القول في الرواية يلفت باستمرار إلى قائله. فهو تراجع عن شكل مألوف للشخصية في الرواية، يقوم على الغوص عميقاً في عالمها الداخلي، ومحاولة تفسير الحدث الروائي استناداً إلى ذلك العالم الداخلي.

في هذه الرواية تقلصت المساحة الروائية لعنصر الشخصية تقلصا ملحوظا ومفسراً روائيا (شكلياً) بسيطرة الشكل القولي في العمل، فلسنا أمام تقلص يخلّ بالطابع الإبداعي العام للعمل. وقد لاحظت وضعا للشخصية يمكن أن يرتبط في العمق بتوازن العمل الروائي باعتباره عملا ينهض على عناصر متعددة (منها الشخصية)؛ أي باعتباره شكلا وإبداعا؛ وربما تكون حقيقة الوضع السابق مرتبطة بتوازنات حد أدنى للإبداع الروائي... لقد تميز وضع الشخصية في هذا العمل بحضور عال، ليس على مستوى العمل الكلي، بل على مستوى صناعة الحدث، إذ تميز الحدث الروائي هنا بالحدية: قتل، إصدار حكم قضائي قاس.

فكان الحدث ضمن أشكاله السابقة يلفت بقوة إلى الشخصية الصانعة، وإلى النمط الدرامي للحدث، وهو ما يمكن أن نربطه بالشخصية المتطورة، دون أن نربط هذا التطور بالإيجابية أو السلبية. فالعناية بتطور الشخصية عناية بالوضعية غير السكونية للإبداع

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الروائي؛ وهي وضعية أساسية في نجاح الإبداع الروائي. فما بدا في سياق التوازنات الداخلية في هذا العمل هو نجاح عنصر الشخصية بحضوره القوي من خلال الحدث الدرامي – باعتبار الشخصية صانعة لهذا الحدث، في تحقيق توازن مع المساحة القولية في الرواية وهي المساحة الأساسية في هذه الرواية.

إن الشخصية في هذه الرواية تميزت بأنها تقول قولا طويلا وتفصيلياً –حمولة إيديولوجية عالية، وتفعل أفعالا جذرية: تهدد بالقتل (تهديد اللجنة للسارد)، تقتل (قتل السارد لعضو اللجنة الذي هدده بالقتل)، تنفي الآخر (اللجنة تصدر حكما قاسيا جداً على السارد)، تحقيق الوجود عبر تدمير الآخر (الموقف الأخير في الرواية المتبنى من طرف السارد تجاه اللجنة،...) وربما تكون مفيدة الإشارة إلى أن تبريرات الأحداث الدرامية في هذه الرواية لا تتحقق سرديا مع فعل النمو السردي، بل تتحقق عبر إضاءات المضامين الايديولوجية القائمة في موقع/ مساحة السرد –القول على نحو ما سنرى في تحليل البنية الدلالية.

لقد كان السارد الشخصية البارزة في الرواية، فهو صانع أحداث درامية مهمة، ورسم السرد الكلي سمات لها : مثقف، ذو إرادة قوية، موقعها أدنى السلم الطبقي، قدرة هائلة على العطاء الاجتماعي يعوقها الحرمان من فرص ذلك، قناعة متجذرة في الاعتقادات واستعداد للدفاع عنها والتضحية في سبيل ذلك.

فالشخصية التي يرسمها السرد هنا هي شخصية المثقف المصري المقهور طبقيا وحامل الهم السياسي الوطني بأبعاده :عدالة اجتماعية، ديمقراطية، اقتصاد قوي،... وقد رسم المؤلف هذه الشخصية من خلال الخطاب الطويل الصريح – عن الجدل الاجتماعي في مصر السبعينات– لهذه الشخصية المصرية الوطنية الرافضة للسياسات الداخلية للدولة المصرية في المدى الكلي للسرد الذي انبنى على شكل مقولات سردية طويلة متتالية هي الشكل المعماري الأساسي للرواية. وإذ تبدو الأحداث التي قامت بها الشخصية مدخلا يأتي في المرتبة الثانية في فهم الشخصية وخاصة أن الأحداث في هذه الرواية فنية ورمزية بالدرجة الأولى.

وفي النهاية نحن أمام شخصية مقنعة ترسم نموذجا غير بعيد عن البيئة المصرية المسيسة والمثقفة المعارضة لسياسات الحكم، وتتحقق الشخصية المقنعة هنا نتيجة تحقق الإقناع في خطابها الذي حللناه في التحليل الكلي.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثمة بروز مواز لشخصية أخرى هي شخصية اللجنة بأعضائها الذين كانوا نسخة واحدة في سماتهم الأساسية، حيث لم يعن السرد بإظهار أكثر من سمة واحدة وأساسية هي التسلط وما يرتبط به من استبداد واستعلاء، تجلت جميعا في سلوك اللجنة ومنطوقها: وضع إصبعها في مؤخرة السارد، تهديد السارد للتراجع عن نتائج بحثه، محاكمة السارد،... ثم هناك سمات الموقع الطبقي والاجتماعي وهو أعلى السلم الطبقي والسلطوي -إن لم يكن هو السلطة ذاتها- على نحو ما بينا في دراسة البنية الدلالية.

وتلك الشخصية رمزية أكثر منها حقيقية؛ فهي ترمز إلى موقع السلطة الحاكمة في مصر وترسم سماتها القهرية التي هي أهم ما يميزها. أي أننا أمام شخصية هي دور قائم في مصر يعتبر أحد طرفي الصراع الاجتماعي الداخلي المجتمع المدني (السارد) / الدولة الوطنية (اللجنة)، ولسنا أمام شخصية روائية ينبغي تقصي ملامحها وخطوط سيرها، ومع ذلك فقد رسم المؤلف خطوط سير اللجنة باعتبارها الدولة ذات السياسات، وهو ما تم توضيحه في التحليل الكلي.

الأسلوب واللغة

إن السمة الأسلوبية الأساسية الأولى في هذه الرواية هي الوثيقة، وهي السمة التي تناول البحث قيمتها وأبعادها في حديثه عن فكرة الرواية. والسمة الأسلوبية الأساسية الثانية في هذه الرواية هي السخرية، وهي سمة حققت وظيفتين: لغوية (دلالية)، وفنية إذ ساهمت تقنية المفارقة الساخرة في الرواية إلى حد كبير في تخفيف ثقل رواية يرويها راو واحد عن تجربته الفردية، لا بما تمتلكه المفارقة بطبيعتها ضمن هذا السياق بل أيضا بما توحيه وضعية المفارقة المتحققة من وجود عنصرين اثنين يتضارب كل منهما مع الآخر!- وهو تضارب يحققه هنا الاجتماع القائم للإيديولوجيتين المتصارعتين روائيا ناهيك عن إحدى الإيديولوجيتين مع ذاتها والمقصود إيديولوجية السلطة والبرجوازية المتحالفة معها، إذ تتضارب هذه الايديولوجية مع ذاتها عندما تتحدث عن رخاء اقتصادي يعم مختلف الفئات الاجتماعية في حين أن نقيض ذلك هو المتحقق أو مثل قضية الوحدة العربية والتحرر الاقتصادي من هيمنة اقتصادات الرأسمالية الكونية في حين أن النقيض هو المتحقق.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويتحدث صنع الله إبراهيم ذاته عن أسلوب هذه الرواية بقوله: حلت السخرية المباشرة محل النبرة التقريرية والحياد الظاهري، وفعل الاغتيال للشرير محل الاعتراض السلبي (١) .

كذلك وجدت مسافة فنية ساهمت كثيرا في صنع التوازن الفني العام للعمل وأوهمت بحياد خطاب الأنا الراوي- تحققت بتقنية تشكيل خطاب الأنا من مواد أرشيفية منقولة وممارسة تركيبية على الوحدات اللغوية المكونة التي ربما يشك في أصلها الأرشيفي ترفعها إلى مستوى المادة الأرشيفية.

وقد حققت الرواية المسافة الفنية للجنة بإطلاق مساحة تعبيرها القولي الذي تحقق بالضبط بتحقق الحد الأدنى لتحققه وهو التعبير عن الموقف باقتضاب شديد ذي طابع عام، ربما كان انسجاما فنيا مع شكل روائي مبني على الخطاب Discourse باعتباره بنية الرواية ذاتها ومع الطابع الدرامي المثير وأحيانا الغرائبي الذي لف الرواية حتى مساماتها -هذا الطابع الذي تجلى في مستوى الوصف (بما هو آلية بناء في فن الرواية) وفي مستوى الحدث الروائي، ويمكن أن نستذكر الطوابع التي طبعت العلاقة بين السارد واللجنة في بداية السرد وراجع تحليل العلاقة الذي قمنا به، وفي غرائبية الحدث نستذكر السلوك الإرهابي للجنة وحكمها الذي أصدرته.

وقد أدى الطابع الدرامي المثير والغرائبي في حبكة الرواية وظيفة فنية هي التشويق وموازنة السخرية الحادة الفاضحة في خطاب المفارقة الطاغي على هيكل الرواية إذ ساد البناء الروائي تسلسل مستمر (فني) تشكل من تعاقب عنصري القول المكشوف الساخر والحدث الدرامي الحادّ، شكل تعاقبهما الفعل السردي الكلي. ناهيك عن الأبعاد الدلالية الموضوعية في علاقة الأنا باللجنة (كما سنرى في التحليل) وهي دلالات شكل العلاقة.

وهكذا التقت التوازنات السابقة للمسافات الفنية الجزئية كلها في بؤرة توازن أساسي أكبر لا تنهض الرواية بما هي خطاب شكل فني إلا به، وهو توازن/ مسافة بين الرواية واقتناع القارئ.

---

(١) صنع الله إبراهيم، شهادة، فصول، مجلد ١١، ع٣، ١٩٩٢، ص١٧٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولقد برعت لغة السرد الكلي في تكثيف الدلالة على ذاتها؛ بدقتها التعبيرية الشديدة التي ظهرت في كل كلمة تدخل مستوى السرد، وهو نهج في التعامل مع اللغة وفهم وظيفتها عند مؤلف هذه الرواية، فهو يسعى كما يبدو الى سرد الدقة والحقيقة دون زيادة أو تشويش لإيمانه بقوة الحقيقة المعبرة. حيث امتازت لغة السرد بمحاولتها الدائبة أن تأتي لغة بعيدة عن الوصف الذي يتجاوز موضعة الموصوف، أي التعامل معه بأقصى درجة ممكنة من الحيادية، إلا أن الفصل الأخير جاء مفعماً بالجملة المونولوجية نظراً للطبيعة الخاصة للنهاية، وحتى الجملة المونولوجية كانت ذات طابع موضوعي لافت، لنأخذ مثالاً "ومن الطبيعي أن يثير هذا الاتمام مشاعر معينة. فلجأت الى ما لدي من كتب اباحية، واستعنت بكل من خيالي وذكرياتي، لأعيش لآخر مرة تلك اللحظات المتوترة الرائعة، التي تدب فيها الحياة في كل خلية من خلايا الجسد، وتصبح اللمسة لأي موضع منه مبعث رجفة ولذة متجددتين تلحان على التكرار".(١)

ولابد من الإشارة الى لعب الكاتب بدهاء على مبدأ تصعيد التضاد في المفارقة إلى الحد الذي يوحي طوال سيرورة الخطاب المفارق بالأعصاب الميتة لا الباردة فقط – التي تقف وراء موقع قول الخطاب: "أجبته في حماس : لكننا لن نجد من هو ألمع وأكثر حضورا في كل مكان بالعالم العربي منه. ويكفي أن فكرة الوحدة العربية ترتبط باسمه هو بالذات ارتباطا وثيقا. فهو من دعاتها الأولين، كما هو معروف. لكن ما يجهله كثيرون، وما أثبته بالوثائق، إنه أيضا من أبرز دعاتها والمؤمنين بها في هذا العقد الذي انحسرت فيه الدعوة. والمثير في الأمر أن الوحدة التي لم تتحقق في فترة صعود الدعوة إليها، قد تحققت الآن في فترة انحسارها، وهو ما لا يتبدى للرائي من الوهلة الأولى عندما يجابه بالاختلافات والمنازعات السائدة بين الأنظمة المختلفة. لكنه إذا ما تمعن الأمر، وجد تحت هذا السطح الخداع وحدة متينة لم نعهد مثلها قبل الآن، ويرجع إليه الفضل في تحقيقها، وهي وحدة السلع الأجنبية المستخدمة من الكافة"(١:٦٦)

وقد توزع الأسلوب الروائي بين المشهد والحدث مع الإشارة إلى اقتراب المساحة الكبرى في السرد وهي خطاب الأنا من وضع السكون وبالتالي المشهد، فكان الأسلوب دراميا واضحا إذ يأتي سرد الحدث، ثم يعود إلى وضع أقرب ما يكون إلى الموضوعي

---

(١) صنع الله ابراهيم، اللجنة، ط١، دار الكلمة، بيروت، ١٩٨١، ص١٤١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المتميز بنظرة نافذة تمتلىء وعيا وذكاء وكذلك ثقافة عندما يتصل الأسلوب بسرد المشهد "كان اعتقادي في السابق أن اللجنة مختلطة أي مدنعسكرية. لكن استبدال أحد الملابس بالصورة التي رأيتها اليوم هز هذا الاعتقاد من أساسه، فلم يكن يعني سوى أحد أمرين: إما أن اللجنة تتألف كلها من عسكريين يرتدي بعضهم الملابس المدنية أحيانا، أو من مدنيين يرتدي بعضهم الملابس العسكرية أحيانا"[١]

وقد تبينّ حضور الأسلوب الرمزي لاسيما في نهاية الرواية "تأكل نفسك" حيث حقق الأسلوب الرمزي إثارة وتشويقاً وتوسيعا للحدود الدلالية للعمل بإطلاق عنان القارئ تحليلا وتكييفا لعلاقات العمل المناظر لبنية علاقات مماثلة في التاريخ المصري الحديث.

تحليل البنية الدلالية

تقاطب ثنائي: الأنا السارد/ اللجنة (علاقة سلطة شاملة).

تنفتح الوضعية الهيكلية لرواية اللجنة من صفحاتها الأولى على تقاطب ثنائي لعلاقة أساسية هي الكبرى في الرواية.. إذ تنشأ العلاقة السابقة مسوّغة بحاجة أحد الطرفين للآخر، حاجة الفرد (السارد) للمجموعة (اللجنة)، وهي حاجة اجتماعية شبه شاملة كما يتضح؛ فهو يبحث عن وظيفة يحصل منها على راتب لائق واعتراف من اللجنة بوجوده الفردي المرتبط باعترافها بقدرته وكفاءته اللتين تثبتهما شهادات شخصية يحوزها.[١]

إن تركيب العلاقة على النحو السابق يجعل اللجنة موقع سلطة في الاجتماعي ويكشف السرد موقعها السابق عندما يعيّن أفرادها بصفوة المجتمع المصري سياسيا واجتماعيا وبخاصة العسكريين ذوي الرتب العالية [١] * .

---

(١) صنع الله ابراهيم، اللجنة، ط١، دار الكلمة، بيروت، ١٩٨١، ص ١٠٣.

* يلتقي التحليل السابق جزئيا مع تحليل د. محمود أمين العالم الذي يعتبر اللجنة أقرب ما تكون إلى السلطة الأجنبية التي لها تواجدها بل سلطانها في مصر، فالالتقاء في كون (اللجنة) سلطة شاملة والخلاف أنني أراها السلطة الوطنية المصرية لا غيرها.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وإذ يتعين موقع اللجنة موقعا سلطويا من بداية السرد، فإن موقع الأنا السارد يتعين هو الآخر من بداية السرد حتى نهايته بالموقع المغاير، غير المسيطر اجتماعياً *، حيث ينبغي الإشارة إلى انطواء مفهوم الصفوة الذي استخدمناه على سطوة الرأسماليين الكبار وسلطتهم جنبا إلى جنب مع سلطة كبار موظفي الدولة، وينكشف هذا في السرد الكلي -إذ يعنى السرد في مراحله الأولى بالتشويق والإثارة والتلميح حتى ينشئ جوّ رهبة حقيقيا يحيط بالعلاقة الثنائية... فتظل الدلالات الدقيقة غائبة حتى تظهر في المراحل التالية للسرد.

تظهر علامة دالة في بداية السرد تلفت إلى بعد مثير في العلاقة الثنائية يطغى دلاليا على المعطى التركيبي للعلاقة (الذي هو معطى مثير في ذاته)؛ إذ يعلمنا الأنا السارد أن علاقته باللجنة-ذهابه إليها، لم يكن طوعياً، يقول "ومع ذلك فقد فهمت أن مصيري يتوقف على المقابلة القادمة. وليس معنى هذا أني أنا الذي سعيت إلى هذا اللقاء، وإنما قيل لي أنه لا مندوحة منه. ولهذا جئت."(١)

ثمة إذن علاقة إكراه تتضح من البداية، ثم تعززها طوابع نفسية واجتماعية سادت العلاقة من طرف الأنا الراوي قبل لقائه باللجنة نستطيع حصرها في :

- علاقة رهبة؛ "كان قلبي يدق بعنف طيلة الوقت، رغم محاولاتي للتماسك والسيطرة على أعصابي."(٥:١)

- علاقة معرفة قبلية سلبية؛ كانت الخواطر تؤرق الراوي في لحظات اقتراب اللقاء لظنه امتلاك اللجنة تقارير "كافية" عنه "سلبية" "وهو الاحتمال الغالب لأسباب عديدة" وهو ما "من شأنه أن يضيق فرصة التأثير الذي يمكن أن أحدثه عندما أمثل أمامها".(١٠:١)

---

* وجّه النقد الحديث اهتمامه إلى الأدوار التي تقوم بها الشخصيات أكثر من صفتها ومظاهرها الخارجية، فعن الأدوار ينشأ المعنى الكلي للنص. د. حميد الحمداني، بنية النص السردي، ط١، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩١، ص٥٢.

(١) صنع الله ابراهيم، اللجنة، ط١، دار الكلمة، بيروت، ١٩٨١، ص ٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- علاقة مزيفة؛ يصل الراوي إلى قناعة بضرورة تزييف "الدوافع الحقيقية لبعض الأفعال" في سياق افتراضه سؤال اللجنة له عن الدوافع التي وجهته إليها.(١)

وتتكرر في غير موضع ضمن كل المساحة الروائية العلامات الدالة على الطوابع الثلاثة المذكورة للعلاقة.

- حد السؤال.

تفتتح الممارسة المباشرة للثنائية السردية (السارد/اللجنة) لحظة تطلب اللجنة منه إجابة عن السؤال الوحيد الذي تطرحه عليه "إننا نريد أمراً واحداً، ولابد أن تكون له صفة العالمية من حيث ماهيته أو دائرة نفوذه، فضلا عن قدرته على تجسيد المعاني السامية والخالدة لحضارة هذا القرن".(١٩:١)

هكذا يحدد السؤال بدقة الموقع الأساسي للحوارية الثنائية ثم يستسيغ السرد تقنية له قوامها إفصاح الأنا الساردة عن موقعها عبر القول -بما القول لخطاب اجتماعي فلسفي منظم، فتتكون السيرورة السردية إجابات طويلة ومتعددة عن السؤال نفسه مشكلة (أي السيرورة) الهيكل الروائي في خمسة فصول كاملة (الأولى) من مجموع الرواية (ستة فصول).

- مدخل اقتصادي.

من مدخل تصغر معه المداخل الأخرى ينفتح خطاب الأنا الراوي على اللجنة وعلى القارئ من مدخل الاقتصاد -من بداية خطابه إلى نهايته كما سنرى.

- طريق المطار.

ينطلق الأنا الراوي في مفتتح سيرورة خطابه مجيبا عن سؤال اللجنة (في محاولة أولى) الباحث عن مجسد موضوعي عالمي لشيء واحد له الصفات التي سبق ذكرها فيحيل اللجنة إلى طريق المطار في مصر قائلاً عنه: "طريق طويل مزدحم بلافتات كثيرة تحمل أسماء شديدة التنوع مثل فيليبس، توشيبا، جيليت، مشيلان، شل، كوداك، وستنجهاوس، فورد، نسله، مارلوبورو"(٢٠:١)، ويتابع "وأظنكم توافقونني أيها السادة، على أن العالم كله يستخدم الابتكارات التي تحمل هذه الأسماء.

---

(١) صنع الله ابراهيم، اللجنة، ط١، دار الكلمة، بيروت، ١٩٨١، ص ١٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كما أن الشركات العملاقة التي تنتجها تستخدم العالم بدورها، فتحول العمال إلى آلات، والمستهلكين إلى أرقام، والأوطان إلى أسواق. وهي بذلك نتاج ذو خطر لمنجزات قرننا العلمية والتكنولوجية. كما أنها غير معرضة للفناء أو النضوب، فقد وجدت لتبقى"[١]

فنلاحظ، فيما سبق، الدلالة الرأسمالية الاحتكارية والاستعمارية للأسماء السابقة فهي أسماء شركات الرأسمالية الدولية الاحتكارية والاستعمارية التي ينتقد السارد سياساتها تلك ضمنا بتحليله مفهوم الرأسمالية المعاصرة للعامل والمستهلك والوطن كما رأينا، ويطال نقده لها السلطة الوطنية المصرية (اللجنة رمز لها لأنها لجنة تقوم وتعمل في النطاق الوطني المصري) التي تتعامل معها وتدخل الاقتصاد المصري والإنسان المصري في فلك التبعية العامة لتلك السياسات المدمرة القائمة على استغلال اقتصاد مصر (العالم الثالث) لا تنميته الحقيقية بقصد تطويره وتحريره من التبعية.*

- كوكا كولا- رمز وعلامة.

باعتماد آلية التركيب المفارق يتجه الأنا السارد صوب رمز أساسي في خطابه (الكوكا كولا-المشروب) فيتوسع فيه قولا ببراعة يشهد عليها ما نرى الخطاب يصنعه من وضع (الكوكا كولا) في نظامها الثقافي الاجتماعي الحضاري ليضع النظام القيمي الاجتماعي بأكمله من ثم في زجاجة الكوكا كولا (الفصل الأول).

فكلامه عن الحروب الأولى للولايات المتحدة في نهاية القرن التاسع عشر باعتبارها حروبا عدوانية، منطلق موضوعي لرصد علامة تؤشر على نظام اجتماعي-حضاري ينطوي على محتواه القيمي السلبي؛ وإذ يواصل الخطاب سيرورته عن قدرة زجاجة الكوكا كولا في المحصلة على السيطرة العمودية على الركنين الاساسيين في المجتمع الأمريكي الاقتصاد والسياسة مع بقاء التوجهات العدوانية اللاأخلاقية (الخارجية خاصة) لهذا المجتمع تضحي الكوكا كولا رمز ذلك النظام الاجتماعي -الحضاري القائم

---

(١) صنع الله ابراهيم، اللجنة، ط١، دار الكلمة، بيروت، ١٩٨١، ص ٢٠.

* يمثل الاقتطافان السابقان بداية دلالة نصية أساسية ضمن محتوى الخطاب الدلالي الكلي الصادر عن موقع قول الأنا السارد تشتمل على تركيب مفارق ساخر هادف يحمل في طبيعة بنيته (المتناقضة) نظامه الدلالي بما فيه قدرته النوعية على إثارة مشاعر السخرية والضحك. ويتكرر التركيب السابق مسيطرا على المساحة الأساسية في السرد الكلي وهي إجابات السارد وبحثه، أي أن التركيب السابق جزء أساسي في بنية الرواية الدلالية والتقنية.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

على تمجيد أدنى مستوى في النشاط البيولوجي الإنساني وإهمال الأبعاد الجوهرية في معنى وجود الإنسان.

" وعندما اشتركت الولايات المتحدة في حرب تحريرية جديدة في كوريا، ابتكرت الكوكا كولا علبتها الصفيح، حتى يمكن إلقاؤها بالمظلات على الجنود. ولم تقتصر أهمية هذه العلبة على أن صورة الأميركي الذي يفتحها بأسنانه أصبحت رمزاً للبطولة والرجولة، أو على أنها أثبتت فاعليتها في الحرب التالية بفيتنام، وإنما تعدت كل ذلك إلى ما هو أخطر، فدشنت عصر الفوارغ، الذي يرمي فيه المستهلك بعبوة السلعة بعد أن ينتهي من استخدامها... ولمزيد من الدلالة على ما لهذه الزجاجة من خطر، فإني أحيلكم أيها السادة إلى المقال الذي نشرته جريدة "الموند ديبلوماتيك" الفرنسية المعروفة في عدد نوفمبر/ تشرين٢ ١٩٧٦ وذكرت فيه أن رئيس شركة الكوكا كولا هو الذي أعد -منذ زمن بعيد- وبالاشتراك مع عدد آخر من رؤساء الشركات الأميركية الضخمة، جيمي كارتر ليكون مرشحا لرئاسة الولايات المتحدة " [١]

- العالم الثالث.

مهّد الحديث الطويل السابق عن الكوكا كولا لتحليل اقتصادي-سياسي آخر يخرج عن النطاق الوطني الأميريكي إلى النطاق العالمي عبر علاقات التبادل والتبعية الاقتصادية القائمة بين الولايات المتحدة والعالم الثالث.

"وإذا كان هذا هو نفوذها (الكوكا كولا) على أكبر وأغنى دولة في العالم، فلكم إذن أن تتصورا وضعها في بلدان العالم الثالث، وخاصة بلادنا نحن الصغيرة الفقيرة. والواقع أن من حقنا أن نصدق ما يقال عن هذه الزجاجة البريئة المظهر، وكيف أنها تلعب دورا حاسما في اختيار طريقة حياتنا، وميول أذواقنا، ورؤساء بلادنا وملوكها، بل والحرب التي نشترك فيها، والمعاهدات التي نوقعها." [٢٤:١]

فيكون العالم الثالث علامة جديدة على الرمز ذاته (كوكا كولا-أمريكا) باستعماره وقمعه من قبل أمريكا حتى يظل في فلكها الاقتصادي والاستراتيجي، وينطوي الحديث

---

(١) صنع الله ابراهيم، اللجنة، ط١، دار الكلمة، بيروت، ١٩٨١، ص ٢٣، ٢٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

السابق عن العالم الثالث على إدانة غير مباشرة للدور الذاتي لسلطات الحكم العربية في قبول الاستيعاب الكلي للبلاد العربية في الدائرة الأمريكية.

- حياد زائف.

بانتهاء المشهد السردي الذي يسوّغ فيه قول الأنا السارد عبر علاقة السائل-المجيب...، وبرسم ذلك المشهد موقف اللجنة المرحلي من إجابته وهو الديمقراطي ظاهريا والخالي من أية لغة معارضة أيضا، يفتتح مشهد سردي آخر يسوّغ فيه موقع القول للأنا السارد بكتابة بحث عن (ألمع شخصية عربية معاصرة) تكلفه به اللجنة، باعتباره الحلقة الثانية في الاختبار، وفي هذا البحث ينتقل السرد إلى نقد السلطة والاقتصاد في مصر بإسهاب (الفصل الثاني).

ويختار السارد شخصية اقتصادية مصرية كبيرة، ثم يبدأ في جمع معلومات عنها من الصحف والمجلات القديمة في رحلة جمع مثيرة يحال فيها بينه وبين المعلومة أو يجد المادة المطلوبة منتزعة من الصحيفة أو المجلة...

وفي نهاية المطاف يتمكن السارد من جمع أهم المعلومات عن شخصية بحثه التي يسميها "الدكتور" :

- ظهرت وطنية الدكتور في "الدور الذي لعبه في حرب الاستنزاف، حيث تولى مقاولة تنفيذ التحصينات الهائلة التي تكلفت ملايين الدولارات، وإن لم تتركه الشائعات وشأنه في هذا العمل الجليل أيضا.. رغم أنه أحد الذين ارتبطت أسماؤهم بمشروعات طموحه للتصنيع الثقيل في الستينات.. لكنه يصبح من دعاة السلام بعد ذلك ويعمل بنشاط في استيراد السلع الغذائية والسيارات والطائرات، مستفيداً من سياسة الانفتاح.(١)
- الدكتور رغم أنه أصبح من دعاة السلام... لم يتوقف عن توريد الأسلحة للحروب المحدودة في الشرق الأوسط وافريقيا، وأعلن أكثر من مرة عزمه على تشكيل فرقة قوية من المرتزقة مستعدة لخدمة من يدفع. (١:٧٥)
- الدكتور الذي كان يمد السوق المحلي بشراب محلي في بداية الستينات بديلا عن الكوكا كولا التي اكتشفت أجهزة المقاطعة العربية في حينه أنها أعطت حق التعبئة

---

(١) صنع الله ابراهيم، اللجنة، ط١، دار الكلمة، بيروت، ١٩٨١، ص ٥٧، ٥٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

للإسرائيليين... اجتهد أن تمنحه الشركة العالمية الأميريكية الكوكا كولا امتياز التعبئة في زجاجة وطنية في مرحلة السبعينات.(١)

وينسجم موقع " الدكتور" في السياقات السردية السابقة مع موقع اجتماعي شامل لا مجرد شخص (فهلوي) نجح في الإثراء... أو مجرد رأسمال وطني (مستقل) عن سياسة الدولة... هو موقع القوة الاجتماعية الفاعلة الحقيقية في النظام الاجتماعي المصري التاريخي الحديث التي هي قوة العسكر (الذين قاموا بالثورة) وقوة قهرهم المتحققة في استيلائهم على الدولة بما هي شكل وظيفي يسيطر على تكوين وإعادة تكوين علاقات السياسة والاقتصاد داخليا وخارجيا.

فشخصية الدكتور مرآة لعكس تركيب معقد تتداخل فيه السياسة بالاقتصاد ويتداخل فيه فسادهما ونستطيع أن نحدد شخصية الدكتور حسب التراكيب الدالة والأحداث والتواريخ... بأن " الدكتور" هو الشخصية-الشخصيات التي استغلت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ لمصلحتها الفردية مستفيدة من تشريعات الثورة الاقتصادية فراكمت ثروات بشكل يجعلها في تعارض مع أهداف الثورة لانهجها فقط، ثم لم يلبث التعارض أن وصل لحظة نضج إلى تناقض انفجر عام ١٩٧٠ بعد وفاة زعيم الثورة جمال عبدالناصر مباشرة، أي على يد المجموعة الانقلابية ل ٢٣ يوليو ذاتها، وهو الأمر الذي ينطوي على إدانة للدور الذاتي لثورة يوليو حيث أن رجالها وعسكرييها وتشريعاتها انتقلوا من محاربة الإمبريالية واقتصادها والرجعية إلى التحالف معهم، وما يتضمنه هذا من تدمير للاقتصاد الوطني ومنجزاته ناهيك عن الكيان المعنوي للشعب وطاقته للنمو والإبداع.

بذلك يكون الاتجاه الإيديولوجي للرواية سائراً نحو اتهام الدور السلطوي باعتباره المصدر الاساسي للقوة والتشريع في مصر الحديثة، لاسيما أن إشارات صريحة ترد في السرد الكلي تتهم كبار رجال دولة يوليو بالارتشاء وتسهيل الفساد...

وإذا كانت استفادة بعض فئات البرجوازية المصرية من الدولة وتشريعاتها اقتصرت على عهد الانفتاح الاقتصادي، أي منذ بداية السبعينات حتى الآن، فإن "الدكتور" كان من المستفيدين في كلا العهدين ولهذا مكّنت له السبعينات أن يراكم ثروته ويضاعفها على حساب التوازن الاجتماعي العام في مصر وتوجه مصر القومي- كما يكشف السرد.

---

(١) صنع الله ابراهيم، اللجنة، ط١، دار الكلمة، بيروت، ١٩٨١، ص ٦٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويتطابق التحليل السابق للأزمة الاجتماعية (وهو المعطى عبر علاقات أدبية) بنسبة عالية جدا مع كثير من التحليلات الاجتماعية العلمية لأزمة الاقتصاد الناصري والساداتي مثل تحليل د.حليم بركات في كتابه "المجتمع العربي المعاصر" و د. عصام الخفاجي في دراسته "البرجوازية المعاصرة والدولة المشرقية-دراسة مقارنة لمصر والعراق" فيتحدث الأخير عن خلل أصاب ثورة يوليو هو المسؤول عن ولادة رأسمالية جديدة من صلب هذه الثورات وبالتالي يجب البحث عن هذا الخلل إما في استغلال المسؤولين لمواقعهم الوظيفية أو في دس الرأسماليين القدامى لأبنائهم في المؤسسات السياسية والاقتصادية والإدارية الجديدة للتأثير عليها. (١)

- موقع شامل للمعارضة .

ترد علاقات لغوية قبل اكتمال بحث السارد عن شخصية الدكتور تضع الأنا طبقيا في أسفل السلم الاجتماعي، وإيديولوجيا في موقع تحرري راديكالي ممزوج بنزعة إنسانية عميقة، فهو يسكن منزلا متهالكا في طابق سابع بدون مصعد ومنزله متواضع المكونات...، وهو يضع أنبياء الله وماركس وجيفارا وطه حسين... في إطار واحد هو المسعى الإنساني. (٢)

- نحو انفصال الموقعين.

تحولت ثنائية الأنا/اللجنة تحولاً دراماياً عندما طلبت اللجنة من السارد التوقف عن إكمال بحثه المذكور بسبب النتائج التي وصل إليها، ونظراً لإصرار السارد على مواصلة بحثه فقد زرعت اللجنة أحد أعضائها في منزله وهو مسلح بمسدس، وبمرور الزمن كانت العلاقة بين السارد والعضو المزروع تتجه إلى الحسم نتيجة عدم الثقة المتبادلة فكان المصير الدموي للعضو المزروع على يد السارد...، ومن ثم محاكمة القاتل على يد اللجنة ذاتها بأن يأكل نفسه وهو الحكم الذي نفذه السارد في نهاية المطاف.

وفيما سبق كان السرد يتجه بوضوح إلى لغة رمزية، سنفهمها في ضوء العلاقات الكلية كما يلي:

---

(١) عصام الخفاجي، البرجوازية المعاصرة والدولة المشرقية دراسة مقارنة لمصر والعراق، جدل، آب ١٩٩١، ص١٧٩.

(٢) صنع الله ابراهيم، اللجنة، ط١، دار الكلمة، بيروت، ١٩٨١، ص ٦٠، ٩٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إن الإهانات التي ذكرها الأنا في علاقته مع اللجنة في بداية السرد مثل وضع إصبع أحد أفرادها في مؤخرته والتهديد الشديد الذي وجه للأنا بسبب استمراره في بحثه عن الدكتور، وزرع أحد أفراد اللجنة في بيته... والشكل العبودي الإرهابي في سلوك هذا الفرد المزروع وهو الذي تجلى أثناء إقامته لدى السارد ووصل حد التلويح له بإمكانية اغتياله بالمسدس، وفيما بعد احتواء قائمة المعزين بفقيد اللجنة على أسماء رموز الرأسمالية الهمجية ودكتاتورات العالم...، علامات تضع (اللجنة) في موقع القوة الاجتماعية المسيطرة في مصر الحديثة أي مصر غير الديمقراطية داخليا والتابعة اقتصاديا للرأسمالية العالمية وبالتالي حدوث الأزمات الاجتماعية الشاملة داخليا كما اتضح في السرد الكلي. وهي علامات تضع من الناحية الأخرى السارد في موقع المعارضة الطبقية والايديولوجية للوضع القائم.

- نهاية العلاقة بلا رحمة.

إن الحكم الذي صدر على السارد علامة على صعوبة تغيير الوضع الاجتماعي أو مقاومته وهو ما يؤكده السارد بمشاهداته وحوادث في رحلة عودته الى البيت بعد صدور الحكم، فهو يرى الناس في الشوارع مقبلين على شراء زجاجات الكوكا كولا وشربها (الكوكا كولا رمز تم تفسيره سابقا)، ويركب باصا حكوميا لا يليق ببشر، ويذهب إلى مستشفى يستغله ماديا، ... ثم يستقر في منزله.

إيديولوجيا الرواية

في رواية القول هذه نرى إيديولوجيا الرواية كامنة في إيديولوجيا السارد صاحب الخطاب الاقتصادي السياسي الطويل الذي طال بخطابه التطور الاجتماعي المشوه للدولة والاقتصاد في مصر* ، وفي البنية الكلية للعمل حيث تمثل العلاقة بين اللجنة والسارد ضمن وقائعها الحدثية نموذجا لشكل العلاقة بين الدولة المصرية والمجتمع المدني بفئاته المقهورة طبقيا وديمقراطيا والعاجزة عن مواجهة فعلية لجبروت الدولة التي تمسك زمام

---

* بحسب باختين فإن المتكلم في الرواية هو فرد اجتماعي أساساً، ملموس ومحدد تاريخياً، منتج ايديولوجيا ، وكلماته دائماً عينة ايديولوجية. واللغة الخاصة برواية ما، تقدم دائماً وجهة نظر خاصة عن العالم تنزع الى دلالة اجتماعية، تجنب الرواية أن تكون لعبة لفظية.

ميخائيل باختين، ت : محمد برادة، الخطاب الروائي، ط١، دار الفكر، القاهرة، ١٩٨٧، ص ١٠٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سلطة الردع الداخلية وتخطيط العملية الاقتصادية والاجتماعية الداخلية بعيدا عن مشاركة الفئات العظمى ومصلحتها.

وضمن إيديولوجيا الرواية يفهم معنى المساحة الكبيرة نسبيا لحديث الأنا في بداية الرواية عن أهرامات مصر باعتبارها معالم تاريخ عريق ينطوي على عبقرية بشرية - حيث يدعم السياق السردي الذي ورد فيه الحديث عن الأهرامات وهو الحديث عن الأمور والمعاني العظيمة -على نحو ما رأينا في بداية الرواية- البعد الرمزي للأهرامات المصرية في إيديولوجيا العمل الكلي؛ فالأهرامات تمثل علامات على إمكانية الرهان على الذات في عملية البناء والتنمية الوطنية؛ أي أن أهرامات مصر تدين نهج مصر الحديثة في رهاناتها على الخارج بدل الداخل.*

وضمن إيديولوجية الرواية ظهر السارد (المجتمع) في مواجهة اللجنة (الدولة) التي يصورها السرد غير ممثلة للأغلبية الطبقية في نهجها...، وسببا في تغذية استقطاب لا يرحم بين الدولة الوطنية والمجتمع المدني، حيث يدعو السارد صراحة في نهاية الرواية إلى الثورة على الوضع القائم ويحمّل مسؤولية الفساد الأساسية للجنة (الدولة) "لقد ارتكبت منذ البداية خطأ لا يغتفر، فقد كان من واجبي لا أن أقف أمامكم، وإنما أن أقف ضدكم، ذلك أن كل مسعى نبيل على هذه الأرض يجب أن يتجه للقضاء عليكم."(١) ويشيع السارد بعد ذلك أجواء تفاؤل منطقية كبيرة بزوال دولة الاستبداد حيث س "ترتفع مقدرة أمثالي على مواجهتها والتصدي لها." (١٤٣:١)

إن أهمية ايديولوجية تجعل حركة الصراع الاجتماعي في مصر المعاصرة بين مجتمعها ودولتها هي خطورة صراع كهذا ومأساويته، ناهيك عن تطابق المعطى الإيديولوجي الروائي هنا مع تحليلات اجتماعية علمية عربية معاصرة كثيرة لحركة الصراع الاجتماعي الداخلي في مصر والدول العربية مثل دراسات د. خلدون النقيب، د.

---

* يرى د.شكري عياد أن الأدب الحداثي مهما يكن مضمونه أدب رافض والرفض معناه ألا نستسلم للواقع الكالح.
د. شكري عياد، المذاهب الأدبية والنقدية عند العرب والغربيين، ط١، سلسلة عالم المعرفة (١٧٧)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، أيلول ١٩٩٣، ص٧٣.

(١) صنع الله ابراهيم، اللجنة، ط١، دار الكلمة، بيروت، ١٩٨١، ص ١٤٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حليم بركات، د. برهان غليون، د. محمد عابد الجابري، ومثير أن يكون عنوان آخر دراسة اجتماعية كبيرة ل د. برهان غليون هو "الدولة عدوّ الأمة" -صادرة عن مركز دراسات الوحدة العربية-لبنان.*

وفي تولد دلالي نهائي تكون اللجنة رمزاً للسلطة الوطنية المصرية (الدولة الوطنية) لأنها لجنة تقوم وتعمل في النطاق الوطني المصري ويكون المواطن (السارد) رمزا للمجتمع المدني المصري المعاني من السياسات الشاملة لهذه السلطة -فالسارد هو الموقع أو المواقع الطبقية المتضررة، والحالة الإنسانية المحرومة من الحرية السياسية. وضمن علاقات الدلالة الكلية في الرواية تكون الدولة الوطنية أيضا رمزا للرأسمالية الدولية لأنها تابعة لها اقتصاديا وسياسياً.

السارد (المواطن) = المجتمع المدني

المجتمع المدني = قهر طبقي + قهر ديمقراطي

اللجنة = الدولة الوطنية.

الدولة الوطنية = تبعية اقتصادية للرأسمالية الدولية + تبعية سياسية للرأسمالية الدولية

السارد ≠ اللجنة

المجتمع المدني المصري ≠ الدولة الوطنية المصرية.

❋ ❋ ❋

إن رواية (اللجنة) لصنع الله ابراهيم بطرحها الفكري السابق، وآليات التأثير والانفعال التي استخدمتها، ليست سوى تعبير عن معاناة حقيقية شاملة يعيشها المواطن والمثقف المصري في كنف النظام القائم في مصر المعاصرة ١٩٥٢-١٩٨١ (تاريخ الطبعة الأولى للرواية) ، بحثاً عن ذاته الانسانية والوطنية والقومية.

---

* يرى محمود حنفي كساب أن الشخصية المحورية في هذه الرواية اكتشفت أخيراً -مثلها مثل العديد من مثقفي العالم الثالث- أن الهرب من الجذور خطأ مروع، وأن النضال ضد كل أشكال القهر الداخلي والخارجي واجب تاريخي على مثقفي ذلك العالم عليهم أن يضطلعوا به حتى لو تطلب الأمر الاستشهاد.
محمود حنفي كساب، "لجنة" صنع الله ابراهيم وكبرياء الرواية، إبداع، ع١، ١٩٨٥، ص١٣٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الرابع

"بيروت بيروت" او ثروة الذات / ثروة الآخر

(بنية تشظّي المجتمع)

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ملخص لرواية (بيروت بيروت)

يصل السارد من القاهرة إلى بيروت ليطبع كتابا له هناك. السارد مثقف وسياسي شيوعي مصري، وبينا هو في بيروت تعرض عليه صديقة له (أنطوانيت) كتابة تعليق سياسي على فلم صامت عن الحرب الأهلية اللبنانية (١٩٧٥-١٩٨٠) شريطة أن يكون تعليقا محايداً، فيقبل. وبعد انتهائه من كتابة التعليق يستعد للمغادرة، وفي هذه الأثناء يتعرض للاختطاف على يد إحدى الميليشيات لدخوله منطقة نفوذها، وبعد سلسلة من الاتصالات للبحث عنه يعثر أصدقاؤه عليه ويتم إطلاق سراحه ويعود إلى القاهرة.

إن الأحداث السابقة ليست هي المفتاح الحقيقي لقيمة الرواية؛ وإنما المفتاح هو المادة الوثائقية الخصبة التي تشكلت من تعليق السارد على الفلم، وهي كذلك الأوصاف والتحليلات للشخصية والمجتمع اللبناني التي كانت ترد في السرد غير الوثائقي.

ففي السرد غير الوثائقي كان السارد يكشف نمط الحياة اللبنانية وتفكير المواطن اللبناني (بواعثه، الظروف المحيطة به، اتجاهاته) ومشاعره المتولدة من بيئة الحرب الأهلية، وفي السرد الوثائقي كانت الوثيقة ترصد بالتفصيل كل الأدوار الحربية المتصارعة في لبنان وجودا وأفعالا وأسباباً وفلسفةً.

وبذلك ينتقل القارئ انتقالا كاملا نفسيا وذهنيا إلى البيئة اللبنانية بصراعاتها، ومآسيها، وسيكولوجيتها، وسر ما يحرك ذلك كله فيمكنه أن يكتشف أن التفكير الانقسامي داخل الجماعة الوطنية الواحدة هو سبب الكارثة اللبنانية، وأن هذا التفكير لم يكن في العمق إلا دفاعا عن مصالح اقتصادية في أغلب الأحيان، مما يشير إلى تعيّن الخلل الاجتماعي الكلي في حالة الانقسام ذاتها على المستويات الذهنية والسياسية والاقتصادية، حيث تَضمن مفهوم الانقسام على المستوى الاقتصادي في لبنان غياب العدالة في توزيع الثروة على بعض فئات المجتمع اللبناني وهي فئات كبيرة.

ولذلك كانت الصورة الأساسية المرسومة للمواطن اللبناني والسيكولوجية اللبنانية في السرد غير الوثائقي هي صورة الأناني الفردي النزعة الذي يحاول أن يجمع أكبر ثروة ممكنة بأي طريق ممكن دون أن يعبأ بالآخرين أو بشرعية الثروة. ونمط اجتماعي كهذا لا يمكن أن نلومه على توجهاته في ظل وجوده داخل لعبة اجتماعية أكبر منه هي التي توجهه في حقيقة الأمر في حالة لبنان- مما يجعل الاتهام الحقيقي موجها لقيادات الحرب الاجتماعية أكثر من أي طرف آخر.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فكرة الرواية

تقدم (بيروت بيروت) رؤية اقتصادية تفسر من خلالها الصراع الداخلي في لبنان، فترد إلى العامل الاقتصادي الدور الحقيقي في تشغيل الصراع الداخلي الرهيب، وتكشف زيف المبرر الطائفي الذي سوقه الموارنة بالتحديد للتغطية على أهدافهم الاقتصادية.

وفي هذه الرواية حديث شامل تفصيلي عن الحرب الأهلية اللبنانية من بدايتها التاريخية القديمة (١٨٦٠) والحديثة (١٩٤٣) إلى نهايتها السردية (١٩٨٠)، وتحليل لشخصية المواطن اللبناني السياسية والسيكولوجية.

تشكلت الرواية من مستويين سرديين: عادي ووثائقي، يرصد الوثائقي الحرب الأهلية بأدوارها وتفصيلاتها، ويرسم الثاني شخصية المواطن اللبناني، حيث تعاقب المستويان السرديان في صناعة السرد الكلي.

وضمن السرد الكلي ل "بيروت بيروت" ظهرت صورة أخرى للبنان (غير الحرب الأهلية)، جعلت لبنان نفسه صورة للمجتمع العربي الكبير عندما مدّت الأنظمة العربية أياديها إلى لبنان وساهمت تاريخيا وموضوعيا في صناعة كارثته الداخلية... فبدا لبنان في سرد (بيروت بيروت) رمزا للمأساة العربية المعاصرة التي تعاني تخلفا ثقافيا تاريخيا ينتج أنظمة سياسية قمعية ورجعية وغير وحدوية ... كذلك بدت المقاومة الفلسطينية في السرد الرمز المشرق والتقدمي الذي يرسم للواقع العربي طريق تحوله التاريخي عبر المقاومة والتضحية.

الحبكة والأحداث

تغيب الحبكة المثيرة في هذه الرواية ويرتكز البناء الفني إلى حبكة عادية هي نجاح السارد في طبع كتابه في بيروت أولا، ويفشل المؤلف في إضفاء إثارة على السرد القائم على التسلسل الزمني في القطاع السردي غير الوثائقي عندما يجعل السارد ضحية لمجموعة مسلحة تختطفه مهددة حياته دون مبرر سوى الطائفية...، ذلك أن اصطناع حبكة جزئية صغيرة بعد أكثر من مئتي صفحة من الرواية تخلو من الحبكة القوية الشاملة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لن يشد القارئ إلى الأمر بل سينظر بشيء من الاستغراب للفجوة الفنية الواضحة نتيجة الاختلال السابق المائل بوضوح.

ويتعزز غياب الحبكة في هذه الرواية بسيطرة السرد الموضوعي (الوثائقي) على ما يقارب نصف العمل بالتناوب مع السرد الأصلي، وحيث يسوغ السرد الوثائقي فنيا بأنه تعليق السارد على الفلم الوثائقي عن الحرب اللبنانية، وهنا تظهر فجوة أخرى، فمحتوى السرد الوثائقي أكثر كثافة وتأثيراً من السرد الأصلي، إلى الحد الذي يجعله مركز الرواية دون غيره، وحيث يتشوق القارئ لقراءة السرد الوثائقي ومتابعته دون النظر إلى السرد الأصلي.

أما الأحداث التي تعرض في السرد غير الوثائقي فهي يومية عادية تتميز بأنها الأحداث اليومية العادية في لبنان الحرب الداخلية، وهي الأحداث التي يعيشها السارد منذ مجيئه بيروت، وهي لا تعكس غير الحالة اللبنانية والشخصية اللبنانية اللتين تحدثنا عنهما بالتفصيل في التحليل الكلي وشخصيات الرواية.

وأما الأحداث التي تعرض في السرد الوثائقي، فهي كثيرة جداً ومحملة بقدر عال من الدراما والإثارة لاتصالها بموضوع الحرب الداخلية التي تتغذى على الدم والدمار، ولكونها موجزة مكثفة ضمن صيغة سرد هي الوثيقة، حيث أضفت هذه الأحداث على السرد الكلي حيوية وزخما كبيرين موضوعا وفنا ودفعت القارئ إلى التساؤل عن أبعاد الدائرة الإبداعية التي يوجد داخلها هذا العمل الفريد من نوعه في الرواية العربية، ف (بيروت بيروت) تقدم رؤية نقديةً للحرب اللبنانية روائيا عبر نهج يعتمد قوة الوثيقة في طرح خطاب روائي عميق اعتبره د. علي الراعي عملا فذا: "علامة العمل الجيد عندي أنك تشعر بخسارة فادحة حين تتخيل أنه لم يكتب قط، أو أنه اختفى من بعد. وهذا هو حالي مع "بيروت بيروت"[١] واعتبره أبو المعاطي أبو النجا إبداعا مجنونا حيث أن "كتابة رواية جيدة بكل المقاييس نوع من المغامرة، أما كتابة رواية عن الحرب الأهلية اللبنانية وتداعياتها فمغامرة تقترب من حافة الجنون!"[١]

---

(١) صنع الله إبراهيم، بيروت بيروت، ط٢، دار المستقبل العربي، القاهرة، ١٩٨٨، الغلاف الأخير.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويلح سؤال في سياق ما ورد آنفا، ألا يمكن لرواية "بيروت بيروت" التي يمكن أن تجعلها المقاييس الفنية الكلاسيكية ضعيفة في بنائها الفني أن تكون إبداعا متفوقا ومشروعا في مقاييس الرواية الجديدة التي تستوعب تنظيراتها كلّ الأسس الفنية التي تقوم عليها (بيروت بيروت) ؛ حيث أن المقولة الأساسية للرواية الحديثة هي غياب الشكل المرجعي للرواية والانطلاق من تماسك العالم الذي يروى، إذ إن الأعمال الروائية الحديثة "تتعمد إرخاء العلاقة التقليدية الوثيقة بين الشكل والواقع، لأنها تؤكد إمكانات النص بوصفه نتاجا للفكر ومولدا للفكر، ولذلك قد تكون المسافة بين النص الروائي والحياة من الاتساع بحيث يصعب على القارئ العادي اجتيازها."(١)

ففي رواية بيروت بيروت يتماسك البناء الكلي نتيجة تماسك الرؤية الفردية التي يتبناها المؤلف إزاء القضية اللبنانية، والأدوات والتشكيلات التي استخدمها المؤلف مشروعة منطقيا ضمن مقاييس الرواية الجديدة التي ستدافع عن بيروت باعتبارها واقعا روائيا ممكنا تمثل إمكانيتُه شرعيتَه الموضوعية-الفنية. يقول رينيه ويليك أن الأدب "مؤسسة اجتماعية أداته اللغة يمثل الحياة، والحياة في أوسع مقاييسها حقيقة اجتماعية واقعة، والأسئلة المطروحة تدور حول صلات الأدب بوضع اجتماعي معطى، بنظام اقتصادي واجتماعي وسياسي."(٢)

الشخصيات الرئيسية في الرواية

ثمة شخصيتان أساسيتان في هذه الرواية: "وديع مسيحة" وهو كاتب وصحفي متخصص في الكتابة السياسية، و "عدنان الصباغ" وهو صاحب دار نشر ثريّ جداً، وبقية الشخصيات لا تعد ثانوية في هذه الرواية وحسب بل إن هذه الشخصيات الثانوية تعزز بسماتها سمات الشخصيتين الرئيسيتين، وبمعنى أدق فإن الشخصيتين الأساسيتين أراد لهما المؤلف أن تعكسا بوضوح كبير السمات البارزة في شخصية المواطن اللبناني في سنوات السبعينات، فيصبح دور الشخصيات الثانوية تسليط ضوء آخر على سمات الشخصيتين الأساسيتين.

---

(١) د. نبيلة إبراهيم، فن القص في النظرية والتطبيق، بدون طبعة، مكتبة غريب، القاهرة، بدون تاريخ نشر، ص١٦٩.

(٢) رينيه ويليك، نظرية الأدب، ط٢، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٧، ص٩٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فـ "عدنان" كان معدما في بداية حياته وبعد سنوات معدودة ملك ثروة هائلة تكونت نتيجة تعدد ولاءاته الاجتماعية والسياسية (حتى لو تعارضت تلك الولاءات)، فهو يعمل ما يريده الآخرون من أصحاب السلطة بأنواعها، وبالطريقة التي يريدون تماما. أي أنه أداة بيد الآخرين مقابل ثمن مادي معين، فبداية ستر دار نشره للعراقيين ثم للسوريين ونهاية لليبين ثم ترك الليبيين... إذ يمثل كل طرف سابق وجوداً سياسيا وعسكريا في لبنان له موقعه ودوره في الصراع المشتعل على أرض لبنان...

أما "وديع" فهو يجسد النموذج السابق ذاته "عدنان" بطريقة مختلفة؛ فهو كاتب مأجور، وهو ينوع ويبدل ولاءاته الاجتماعية والسياسية تحسبا للمفاجآت وضمانا لحياة أفضل دون أن يتطرق إلى المصلحة الوطنية العامة بما تقتضيه من كتابة مختلفة منبعها ذات الكاتب... ويحلل السرد في قسمه الوثائقي في الرواية الشخصيتين السابقتين تحليلا عميقا من خلال تحليل شخصية المواطن اللبناني العام "اكتسب المواطن اللبناني شخصية الوسيط الذي يمارس الحياد حفاظا على ذاته ومصلحته دون الالتفات إلى الآخرين، وشاع أن الذي لا "يقبض" من جهة ما، هو إنسان فاشل غير جدير بالاحترام"(١)

هكذا يرسم المؤلف صورة عميقة للشخصيات، ويغوص فيها لتحليل سيكولوجيتها. فنحن لسنا أمام أبعاد سطحية في رسم الشخصية؛ بل إنها عميقة ومتكاملة إذ تفسر سلوك الشخصيات في الخط الاساسي والشامل للسلوك، ولا يتوقف المؤلف في رسم الشخصيات وتكوينها عند الحد السابق، بل إنه يدفع القارئ إلى نوع من التعاطف مع شخصياته الانتهازية عندما يصور السرد الكلي الصراع على لبنان بأبعاده الحقيقية (المرعبة) التي تدفع القارئ إلى أن يتساءل: إلى أي درجة يمكن أن يلام المواطن اللبناني العادي على نزعته الفردية والمصلحية وهو يجد نفسه في لعبة اجتماعية-سياسية أكبر منه كثيراً، لعبة المجموعات الاقتصادية-السياسية المتحكمة في تركيب المجتمع اللبناني!؟

وظهرت شخصية المرأة اللبنانية في الرواية، التي تجسدت في شخصية "أنطوانيت" مخرجة الفلم الوثائقي حيث عكست شخصيتها بشكل أساسي بعد التحرر الجسدي وبعد الوعي العام على ما يجري في الساحة اللبنانية وبعد المعاناة النفسية جراء ما يجري من قتال ودمار...، أي أن الصورة المرسومة للمرأة اللبنانية صورة إيجابية

---

(١) صنع الله إبراهيم، بيروت بيروت، ط٢، دار المستقبل العربي، القاهرة، ١٩٨٨، ص ٦٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تتفوق على صورة الرجل اللبناني. وهو وضع قد لا يخلو من مبالغة من طرف الكاتب، إلا أن مسؤولية الذكور عما يجري في لبنان هي الأساسية، حيث أن القيادة الاجتماعية العامة في المجتمع اللبناني (العربي) هي قيادة ذكورية...

تتحدث أنطوانيت في إطار إبراز المؤلف للبعد الإنساني العميق في شخصية المرأة اللبنانية عن الوضع اللبناني محتجة: "تصور أن تجلس لتأكل بعد أن تشهد عدداً من الجثث المتعفنة. أن تندلع الحرائق وتنطلق القذائف بينما الراديو يذيع موسيقى البوب. أن يعترضك عدد من المسلحين ويطلبوا هويتك ليعرفوا مذهبك الديني، دون أن تعرف أنت مذهبهم هم. أو أن تقضي يوم الأحد بمفردك بين أربعة جدران"[١]

أما شخصية السارد فكانت أقرب ما تكون إلى عين الكاميرا التي تقدم رؤية محايدة في الظاهر لما تراه في المجتمع اللبناني. ويمكن ملاحظة أوجه شبه هنا بين شخصية السارد والمؤلف؛ فالسارد أتى بيروت في الرواية ليطبع كتابا وهو الموقف الذي حصل مع صنع الله إبراهيم عام ١٩٦٨ كما أخبرني المؤلف، كذلك ترسم الرواية سمات للسارد تعزز التماهي السابق؛ فالسارد مثقف وسياسي مصري يساري عانى من السلطة، وهو يقص ذكريات عن طفولته وشبابه في مصر تبين أن شخصية السارد هي شخصية صنع الله إبراهيم الى حد كبير.(٢٢،٢١:١)

هكذا جاءت شخصية السارد وسيطا فنيا يمر عبره عالم الرواية بأكمله. أي أن شخصية السارد ليست شخصية أساسية في العمل.

وما تبقى من شخصيات وردت في الرواية يدخل في نطاق الشخصيات التي تعرض عناصر التركيب الاجتماعي اللبناني في الفترة السبعينية؛ أي أنها تعرض بشكل خاص شخصية المناضل أو المرتزق أو الحزبي، ابن التنظيم الفلاني، رجل المخابرات المحلي أو العربي، الشهيد، أرملة الشهيد، المعوق بسبب إصابة قتال،... حيث صور المؤلف هذه الشخصيات في ولاءاتها الاجتماعية والايديولوجية المتنوعة من خلال تحليل موضوعي للفئات المتصارعة يتعرض (بالتحليل) للفئة ككل لا للفرد، وهو تحليل تعيّن في القطاع السردي الوثائقي الذي حُلل مضمونه سابقاً.

---

(١) صنع الله إبراهيم، بيروت بيروت، ط٢، دار المستقبل العربي، القاهرة، ١٩٨٨، ص١٤١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي النهاية فإن الشخصيتين الأساسيتين اللتين قدمهما السرد هما شخصيتان غير سطحيتين؛ فهما شخصيتان حيويتان قادرتان على تبرير سلوكهما الخطير الذي يضعهما في صلب الممارسة الاجتماعية بربحها وخسارتها دون أن تتراجعا، والسمة السابقة رغم أنها الوحيدة الأساسية التي تسم الشخصيتين إلا أنها سمة تخرج الشخصيتين من دائرة السطحية، فثمة حركة دؤوب لكلا الشخصيتين في واقعهما تحتوي على تحد للواقع وصمود أمام المخاطر الناجمة عن سلوكهما التعددي إزاء الولاءات... إن الديناميكية سمة واضحة للشخصيتين ضمن الاعتبار السابق، وهما شخصيتان حقيقيتان في تمثيل الشخصية اللبنانية العامة في الفترة السبعينية.

الأسلوب واللغة

استخدمت الرواية أسلوبين سرديين: وثائقياً، وعادياً وعاقبا في إنجاز فعل سردي كلي، حيث نجح أحدهما (الوثائقي) في لفت النظر (الفكر) بدرجة تفوق بكثير الآخر- إلى الحد الذي يدفع إلى اعتبار المستوى الوثائقي مستوى الدلالة الفائقة في الرواية ومركز الثقل الدلالي بامتياز؛ إذ كانت الوثيقة منتقاة بعناية رهيبة تولد وعيا حادا مقترنا بانفعال مأساوي عال جداً.

وإذا كان السرد الوثائقي يرسم المكان اللبناني والشخصية اللبنانية بلغة تنوء بكثافتها -كثافة الوثيقة، فإن مستوى السرد العادي كان يرسم المكان اللبناني وشخصيته بهدوء وبرود لا يلتقيان مع السرد الوثائقي الدموي، الساخن، وذي الأدلجة العالية - فمستوى السرد العادي كان ينجز وصفا لليومي والعادي في لبنان، وهنا توجد فجوة سردية عانى منها القارئ.

لقد مثل المستوى الوثائقي مرجعا للمستوى العادي مفسرا لسلوك الشخصية اللبنانية باعتباره سلوكا يفهم في ضوء بنية الانقسام الاجتماعي الشامل وتوجهاته، حيث احتوى السرد العادي شخصيات متعددة تتوزع على الانقسامات الاجتماعية.

وقد كانت الوثيقة السمة الأسلوبية البارزة والأساسية في هذا العمل، وتميز أسلوب الوثيقة هنا بتأثيره العالي في القارئ فكرا وانفعالا؛ فالوثيقة قوة الحقيقة المجردة،

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وصرامتها، يصعب إن لم يستحل التشكيك في معطياتها. والوثيقة تنجح أكثر ما تنجح إذا كانت منتقاة بوعي حاد* ، لنأخذ مثالا:

" عنوان في صحيفة لبنانية: تل الزعتر يصد الهجوم رقم ٥١"[١]

" ... إذاعة صوت العرب المصرية تهاجم المقاومة الفلسطينية وتدعو الجيش اللبناني للنزول إلى الشارع لضربها." [١٠٥:١]

" اعتمدت المملكة السعودية أربعين مليون ليرة باسم صائب سلام لمحاربة الإلحاد والشيوعية."[١٠٣:١] وراجع الفصل الرابع من الفلم (شهادات مجزرة تل الزعتر) من ١٥٥-١٦٥.

في مستوى السرد العادي كان الأسلوب يخضع كدأب صنع الله إبراهيم في رواياته السابقة لهدوء وبرود وحيادية تمثل جميعاً خطا أسلوبيا يرضي صنع الله الذي يحاول سرد الحقيقة من خلال لغة (حيادية) قدر الإمكان.

البنية الدلالية

يركب السرد الكلي في "بيروت" صورةً للمجتمع اللبناني المعاصر تتكون من كل القوى الاجتماعية الوطنية في لبنان؛ فهي صورة تمتاز بالشمول أساساً، وعبر نوع العلاقات القائمة بين تلك القوى تنبني الدلالة الكبرى للفعل السردي كما سنرى...

يتركب السرد الكلي من تركيبات سردية جزئية تمثل كلّ منها عنصراً وطنيا اجتماعيا هو واحد من مختلف العناصر الوطنية الاجتماعية المشكلة للمجتمع اللبناني، حيث يحتوي كل تركيب جزئي على صورة كاملة، كبيرة، وعميقة لفكر ذلك العنصر وتاريخه ودوره في الحرب الأهلية اللبنانية من بداية الأربعينات إلى بداية الثمانينات. هكذا يكون ورود أسماء/ أدوار (الطوائف) اللبنانية المختلفة من المارونية إلى الدرزية إلى الشيعية والسنية... حيث تعيش المذاهب والأديان في لبنان بشكل طبيعي منذ منات

---

* استخدم المسرح الألماني في الثلاثينات من هذا القرن أسلوب الوثيقة انطلاقا من فلسفة واقعية تعنى بالإقناع المنطقي العميق للمتلقي دون إثارة عواطفه. سمير قطامي، المسرح السياسي والملحمي بين بريخت وسعد الله ونوس، مجلة دراسات/ الجامعة الأردنية، مج٩، ع٢، ١٩٨٣، ص١٧.

(٢) صنع الله إبراهيم، بيروت بيروت، ط٢، دار المستقبل العربي، القاهرة، ١٩٨٨، ص ١٤٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

السنين، حتى القرن الثامن عشر الذي شهد أول صدام وطني داخلي عنيف، عام ١٨٦٠، كان بين الموارنة من جهة والدروز من جهة أخرى؛ إذ نسف تعارض مصالحهما الاقتصادية إمكانية التعايش السلمي الطبيعي لهما معاً... (راجع الرواية ص٥٨) وتحول العنف الداخلي وسيلة لمعالجة النزاعات الوطنية في لبنان منذ ذلك التاريخ حتى بداية الثمانينات.

وفي ضوء المعطيات اللغوية التي يبثها السرد وهو يكشف حدود كل دور في الساحة اللبنانية وحجمه، كانت البنية العميقة المحركة لكل دور هي مصلحته الاقتصادية التي تواجه تهديداً من دور/مجموعة لبنانية أخرى، وهو ما تجلى في أبرز صراع (طائفي) لدورين متصارعين في ساحة المجتمع اللبناني هما الموارنة بزعامة كميل شمعون والسنة والشيعة والدروز بزعامات صائب سلام، رشيد كرامي، كمال جنبلاط على التوالي من جهة أخرى عام ١٩٥٨. حيث كانت هذه المواجهة لحظة حساب تاريخية بين الطرفين، اختزنت مسيرة تاريخية طويلة من الاختلال الاقتصادي والسياسي الذي كان ضحيته الطرف الثاني؛ إذ سيطر الموارنة سيطرة فعلية على أهم مؤسسات جهاز الدولة اللبنانية من خلال ترؤسهم لها بعد اتفاق بينهم وبين المسلم السني رياض الصلح في بداية الأربعينات، فتولى الموارنة مناصب رئيس الجمهورية، قائد الجيش، رئيس المكتب الثاني (المخابرات)، محافظ مصرف لبنان، مدير الأمن العام، ناهيك عن أن تكون نسبة المسيحيين في المجلس النيابي ستة إلى خمسة مسلمين.

والمعنى الاقتصادي للوضع السلطوي السابق هو إتاحة فرصة كبيرة للموارنة للازدهار الاقتصادي مع بقاء غالبية المواطنين فقراء. وباستثناء عائلات معدودة من زعامات السنة والشيعة والدروز كانت أغلبية المواطنين ولا سيما المسلمين الشيعة تعاني من فقر شديد. وضمن الإطار الاجتماعي العام كان الكيان الطائفي الذي تنتقل فيه الزعامات والمناصب مع الثورات إلى الأبناء يكدس الثروات العقارية المبنية وغير المبنية والصناعية والتجارية في أيد معدودة، استغلت ضعف السلطة المركزية وفقر أغلبية المواطنين. وأصبح نصف السكان يحصلون على ثمانية عشر بالمائة من الدخل القومي ويحصل النصف الآخر على اثنين وثمانين بالمائة منه، بينما يستأثر عشرة بالمائة من النصف الأخير بالجانب الأكبر من هذه النسبة".(١)

---

(١) صنع الله إبراهيم، بيروت بيروت، ط٢، دار المستقبل العربي، القاهرة، ١٩٨٨، من ٥٩-٦١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولم يقدر للوضع اللبناني العام السابق أن يتغير إذ استنجد كميل شمعون زعيم الموارنة بالسفارة الأمريكية عام ١٩٥٨ بعد أن بدا التهديد حقيقياً لسيطرة الموارنة التاريخية على المجتمع اللبناني في ضوء تحالف بقية عناصر التكوين الاجتماعي اللبناني (السنة، الشيعة، الدروز، ...) معا لصناعة وطن جديد، مدفوعين بحماستهم لإنجازات القومية العربية التي كان يقودها الزعيم المصري الكبير جمال عبدالناصر، وكانت حجة أمريكا التي أنزلت الآلاف من قواتها على الشواطئ اللبنانية أنها جاءت لحماية لبنان من جمال عبدالناصر (راجع صفحة ٦٣).

وفي عام ١٩٧٥ كانت الأدوار السردية الكلية تستعد لمواجهة تاريخية حاسمة جديدة هي حصيلة ما اختزنته تلك الأدوار في قدرتها الطبيعية على تحمل الاختلال الاقتصادي-السياسي الذي حكم تركيب المجتمع البناني، فانفجرت بوادر حرب أهلية بين طرفي المعادلة الأساسيين الموارنة والفريق الآخر (المسلمين السنة، المسلمين الشيعة، الدروز، والفلسطينيين الذين أصبحوا جزءًا من تركيبة المجتمع اللبناني فيما بعد،...) حولت إلى حرب أهلية دامية خلّفت مئات الآلاف من القتلى والجرحى انتهت أوائل التسعينات (وهو ما لم تقله الرواية لأن طبعتها الأولى كانت عام ١٩٨٤) وفي هذه المرة اشتركت معظم الأنظمة السياسية العربية في الحرب بدعم أحد أطراف الحرب الأهلية دعماً حقيقياً.

وفي سياق الصراع الداخلي في لبنان كانت الإشارات السردية تحدد بدقة الحدود الموضوعية للأدوار المتنازعة بحيث يظهر هناك طرف مستبد مخطئ، وطرف آخر مستضعف يفهم اشتراكه في الحرب الداخلية باعتباره دفاعا مشروعاً عن الذات الاجتماعية والاقتصادية، الطرف الأول هو الموارنة والثاني بقية عناصر التكوين الاجتماعي في لبنان... وضمن معطيات السرد ظهر أن حجم الاختلال لدى الطرف الماروني عالٍ إلى درجة دخوله في صدام مروع على الأرض مع الوجودالفلسطيني وحركة مقاومته بالتعاون مع أنظمة عربية متعددة -دون أي اعتبار لمعنى الوجود الفلسطيني في لبنان وحركة مقاومته أو تعاطف معه لاعتبارات إنسانية أو قومية – فكان الموارنة يصنعون المجزرة تلو الأخرى بحق الفلسطينيين وكان تل الزعتر (١٩٧٦) واحدا من أهمها. وبلغ عدد الشهداء الفلسطينيين فيه ألفا وأربعمائة، والجرحى أربعة آلاف، ودامت مدة حصار مخيم تل الزعتر خمسين يوما لم يتمكن خلالها الموارنة من اقتحام تل الزعتر حتى مات آخر فلسطيني مقاتل في تل الزعتر.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبقدر ما كانت البنية السطحية للسرد مثيرة؛ وهي الحرب الأهلية الرهيبة في لبنان، فإن ما ينبغي أن يكون أكثر إثارة أن البنية العميقة التي ولدت البنية السطحية هي الاختلال الاقتصادي السلطوي لصالح طرف دون آخر كما رأينا، فتكون الطائفة (الدين) والحزب (الإيديولوجيا) محض واجهة خارجية وهمية، وظيفتها التضليل عن العامل الاقتصادي السلطوي باعتباره العامل المحرك الحقيقي للمواقف التاريخية لأطراف الصراع الداخلي، لاسيما الطرف الماروني الذي عمل باستمرار على تسويق المبرر الطائفي للحرب الداخلية الرهيبة على مستوى مؤيديه ومستوى الرأي العام الداخلي والخارجي.

وفي التجربة اللبنانية (كما أظهر السرد) كان حتى أكبر- أرقى شكل تنظيمي مجتمعي، وهو جهاز الدولة، مجرد أداة في يد مجموعة اقتصادية معينة، تستخدمها للمحافظة على وضعها الاقتصادي وتطويره باستمرار ولو (على حساب) بقية المواطنين والعدالة الاجتماعية... فكان جهاز الدولة في السرد أداة استراتيجية بيد المارونيين الذين حرصوا على إخفاء بواعثهم الاقتصادية-السلطوية عبر تسمية مضللة هي الطائفة (الدين) الذي لا يمكن أن يكون يوما عامل هدم اجتماعي- مادام العقل الاجتماعي يفهمه باعتباره معطى إيجابياً وإنسانيا... هكذا (في التجربة اللبنانية) لم ترجع الأجهزة العصرية (الدولة، الحزب، الإيديولوجيا) إلى ذواتها باعتبارها أجهزة وعناصر موضوعية وذاتية المرجع، بل خضعت إلى مرجعية خارج ذواتها الموضوعية، وهو ما أدى إلى إضعاف السلطة الوطنية العامة في لبنان وبالتالي المجتمع اللبناني، وأدى كذلك إلى تسهيل حركة العوامل الخارجية في ضرب الوطن اللبناني وإضعافه وهو ما تجلى في العدوان الإسرائيلي على لبنان عام ١٩٧٨ الذي تمثل في عملية الليطاني التي خلفت ألفا وثلاثمئة قتيل لبناني وفلسطيني، وعدة آلاف من الجرحى، وإجلاء مئة وخمسين ألف لبناني من سكان الجنوب الذين فقدوا منازلهم في العملية العسكرية الصهيونية.

* * *

إنّ إيديولوجية الوطن والديمقراطية والتوازن الطبقي هي إيديولوجية (بيروت بيروت). فهي موقف تقدمي وجذري يتشكل بدافع الرد والمواجهة الواعيين، لتخلف الحالة اللبنانية، وتشظيها. وبيروت بيروت تقول موقفها ذاك صراحة أو ضمنا عبر دلالة الدلالة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الخامس

"ذات" أو عجز مستمر للمجتمع والدولة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ملخص لرواية "ذات"

"ذات" فتاة عادية من فتيات الطبقة الوسطى في مصر تكمل الثانوية العامة لتتزوج أول عريس معقول يطلب يدها. تتحمل ذات وعبد المجيد (زوجها) مسؤولية جديدة هي مسؤولية الحياة المشتركة والأسرة، وحيث أن عبد المجيد موظف عادي جداً في القطاع العام لا يكاد دخله يسد حاجته وزوجته أصبح من الضروري أن تعمل "ذات" لكي يتمكنا من تلبية مصاريف البيت والأولاد. وبذلك انتهى -عمليا- خيار الدراسة الجامعية الذي كان طموحا أساسيا ل "ذات" منعها عبدالمجيد صراحة من تحقيقه بعد زواجه منها بحجة التفرغ للبيت، لم تملك وهي الشابة اليافعة في مجتمع مصر الذكوري إلا الصمت والتسليم.

وجد عبد المجيد عملا متواضعا لزوجته في أرشيف إحدى الصحف القومية، وكان العمل غريبا عليها في البداية ثم ألفته مع مرور الأيام ذلك أن سلوك الموظفات لم يكن مألوفا لديها (وهي البريئة محدودة الخبرة بالحياة والمسالمة) كذلك الموظفين والإدارة؛ فالموظفات يجلسن طوال ساعات العمل يتحدثن في أمور الشراء والطبخ والمكياج والأولاد والصحة... وأحد الموظفين أدهش ذات بإدارته شريطا للشيخ إمام يحرض الشعب على السادات لأنه فتح سفارة لإسرائيل في القاهرة، والإدارة كانت تسيء استخدام المال العام والموقع العام كصاحب العمود اليومي الذي شن حملة على اختفاء قطرة للعين ثم قام برحلة إلى أوروبا على حساب الشركة التي تنتجها.

كان جو العمل يجهز لذات التي لم تؤذ بشراً ولم تفكر بذلك لحظة صدمة عنيفة، لا لعدم قدرتها على التكيف معه -على العكس- بل للمعاملة السلبية القاسية التي تلقتها من نظيراتها الموظفات اللواتي استغلين طيبة نفسها، وبراءة إحساسها، وعدم قدرتها في البداية على مجاراتهن في أحاديثهن عن الشراء والمكياج... فعزلنها عن المشاركة في أحاديثهن العامة (مقاطَعة)، مدمرات بذلك مشاعرها الإنسانية، موهمات إياها بنقص شخصيتها. دون أن نغفل تبنيهن موقفا ضديا مسبقا من ذات التي سبقتها دعاية واسعة قبل أن تنتقل إلى قسمهن على خلفية احتجاج "ذات" -ببراءة- على إزالة صورة جمال عبدالناصر من القسم الذي اشتغلت فيه أول ما اشتغلت، فاقتنع كثيرون بأن ذات شيوعية مع أنها لا تعرف معنى هذه الكلمة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أضيفت الصدمة المذكورة إلى صدمة سابقة هي الشقة التعيسة جدا التي تسكن فيها ذات بأثاثها المتواضع وغياب عناصر أساسية يحتاجها كل بيت كالأجهزة الكهربائية... ثم انضم الى الصدمتين السابقتين صدمة رهيبة أكبر منهما هي عدم مقدرة ذات وزوجها بعد مرور أشهر ثم سنين غير قليلة ثم عقد كامل ثم ما يقارب العقدين على تغيير وضعهما المالي والطبقي وطي صفحات المعاناة الحقيقية في الحياة على الرغم من تجربة ذات لأنماط متعددة من العمل الإضافي الحر (صناعات المنزل أو شراء أغراض ثم بيعها بسعر أعلى...) لذلك ظلت ذات تتهم زوجها بمسؤوليته عن تخلف وضعهما المادي- المعنوي حيث أنها نصحته منذ زمن بعيد -بداية زواجهما- وظلت تنصح بضرورة السفر إلى الخليج العربي للعمل لكنه كان يهمل باستمرار كلامها، بل ولم يعمل عملا إضافيا مثلها وظل يمضي أوقاته الطويلة في ممارسات ومسامرات ضائعة مع نظرائه.

ومن خلال احتكاك ذات وأسرتها بأفراد المجتمع ومؤسساته، رسمت الرواية صورة تفصيلية لاهتراء المجتمع المصري وفساد مؤسساته الرسمية (وما يتبع ذلك من انعكاس سلبي مادي ومعنوي على الشخصية المصرية) فالتجار يستغلون ويبيعون بضاعة منتهية الصلاحية، المؤسسات الرسمية تستورد هذه البضاعة، الشكوى التي تقدمها ذات ضد وزارة التموين تقابل بالإهمال والاستخفاف لدى الشرطة، الجمارك معقدة واستغلالية، المدارس الحكومية في حالة يرثى لها على جميع المستويات، السائقون يعرضون حياة الركاب للخطر،...) ويرسم السرد بشكل خاص القمع الذكوري الواقع على المرأة من خلال سلوك عبدالمجيد الاستبدادي تجاه زوجته والسلوك العنفي لزوج جارتها سميحة تجاه زوجته. إلا أن السرد أظهر تحولاً تدريجيا في موقف ذات من الموقف القابل للاستبداد إلى الموقف المحتج عليه بشدة، وهوما فاجأ عبدالمجيد. وقد التزمت ذات التزاما لا رجعة عنه بموقفها الاحتجاجي الصريح، وظهر أنها ستتشبث به حتى لو قتلها عبدالمجيد الذي أضحى يُشتم ويُحاكم وتُعصى رغباته وأوامره - كل يوم. كذلك تغلبت ذات على لؤم زميلاتها في العمل ومقاطعتهن إذ لم يعد يؤثر فيها أي تصرف لهن.

وقد ضربت ذات منذ ولادتها مولودها الأول مثلا حقيقياً في التضحية لأجل الأولاد والبيت على حساب صحتها وسعادتها، إذ وصلت الليل بالنهار تعمل ما بوسعها لتوفير المال وبالتالي توفير أفضل الأجواء والفرص للأولاد وتربيتهم - إن هذه الرواية تقدم

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

صورة مشرقة للمرأة المصرية لا يعكرها سوى التخلف الثقافي العام الذي يسود الأوساط غير الجامعية من الذكور والإناث على السواء.

لا تكتفي الرواية بتحليل تخلف المجتمع المدني وقيمه، بل تحلل بعمق وشمولية أيضا دور الدولة في التخلف الاجتماعي العام في الفصول الوثائقية التي كانت تشكل نصف فصول الرواية الكلية بالتعاقب. حيث اشتملت الفصول الوثائقية على معطيات تثبت فساد المؤسسات والأجهزة والعناصر الرسمية، في كامل جهاز الدولة؛ فالدولة تسرق الشعب، وتحرمه من حاجاته وسعادته، وتمنع تطور الوطن باتجاه معاصر حقيقي يجعل الاقتصاد المصري قويا كالاقتصاد الغربي ويكرس الديمقراطية السياسية والاجتماعية. وأهمية الوثائق السابقة ليست في دلالتها فحسب، بل في كونها وثائق؛ أي حياديتها وإدانتها للدولة الوطنية من خلال صحفها، فهذه الوثائق حقيقية ١٠٠٪ كما سيرى القارئ.

إن الإحساس بإنسانية الإنسان الذي تمنحنا إياه الرواية في كل جملة فيها هو مصدر الوهج الحقيقي في هذا العمل؛ حيث يحيط بالمسعى الإنساني الإيجابي العام في الرواية هالة من السمو والرفعة تقربه من المقدس إذ تكثف الدلالة السردية الإحساس بإنسانية الإنسان، هذا ما يشعره القارئ وهو يتابع ذات تركض بطفلها الصغير من عيادة إلى عيادة، ومن مستشفى إلى آخر، وهي المعدمة المقهورة، في رحلة ذهاب وإياب منهكة ومأساوية : الشوارع، المواصلات، البيروقراطية، قسوة البشر وأنانيتهم، والفقر قبل ذلك كله. وهو ما يشعر به القارئ كذلك إذ يقتحم عالم الوثيقة ذاته؛ حيث تبرز قضية الإنسان وحياته كأهم ما في الوثيقة.

فكرة الرواية.

رواية "ذات" واحدة من أهم الروايات العربية المعاصرة؛ فالزمن التاريخي لهذه الرواية هو مصر الثمانينات، أي المرحلة التي لم (تغطّ) روائيا بالقدر الكبير. وقضية المكان الروائي المطروحة هي الأزمة الاجتماعية الشاملة التي تعاني منها مصر منظوراً إليها من جوانب: الطبقية، ثقافة المجتمع، وممارسات الدولة. حيث عالجت الرواية الموضوعات السابقة برؤية عميقة شاملة أظهرت وعيا حادا روائيا على حقيقة الأزمة الاجتماعية المصرية، وترابط مفاصلها، وفهم مفاتيحها، إذ نظّم الشكل الروائي "ذات"

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

دورين يتصارعان بلا رحمة على الأرض المصرية هما المجتمع والدولة، تنظيماً مباشراً دقيقاً. ومن تنظيمه ذاك انطلق السرد محللا، متفلسفا، وحاملا رؤيته للمستقبل.

وقد كان المدخل الموضوعي -سردياً- لهذا العالم كله هو معاناة الطبقة الوسطى المصرية ومسيرة معاناتها التاريخية -مثلتها نماذج أسرية وسطوية متعددة مع التركيز على نموذج بعينه هو أسرة ذات وعبد المجيد، هذه النماذج التي أتت بها الرواية لتقول شيئين اثنين:

الأول: فشلت مسيرة هذه الطبقة على مدى عشرين عاما - نهايتها أواخر الثمانينات - في تغيير وضعها الاجتماعي التاريخي. رغم أن الطبقة الوسطى هي أكبر طبقة في المجتمع المصري والعربي عموما.

والثاني: ثمة دور ذاتي لهذه الطبقة يتصل بنمط تفكيرها وثقافتها، يتحمل مسؤولية أساسية في تردي واقعها الإنساني والتاريخي. حيث أبرزت الرواية نقاطا عميقة في تكوين الأزمة الثقافية القائم في مجتمع الطبقة الوسطى مثل: الأمية الثقافية، السلوك الاستبدادي التسلطي، تبني ثقافة رجعية كالثقافة السلفية السائدة، ...

ولقد دمج الوعي السردي الدور السابق بدور الدولة الذي يمكن تسميته دوراً اجتماعياً ثانياً مسؤولا عن تخلف المجتمع المصري؛ حيث حلّل السرد معطيات هذا الدور وتوصل إلى مسؤوليته الرئيسية عن إنتاج الأزمة الاجتماعية الشاملة (أي أن مسؤولية دور الدولة هي الأساسية). ولوحظ اتجاه السرد إلى تغطية كامل أبعاد دور الدولة الوظيفي في المجتمع المصري : اقتصاد، ديمقراطية داخلية، حقوق الإنسان، سياسة خارجية، ... ، واتضح أن السرد كان ينظم إدانة كلية لدور الدولة المصرية تقوم على إدانتها من فمها، فهو يستخدم الوثيقة المأخوذة من صحف ومجلات حقيقية في زمن الثمانينات تتحدث عن السلوك الكلي للدولة المصرية كما سنرى. وهذه الوثيقة -سرديا- فصول كاملة لا تحتوي غير الوثيقة، وهي نصف فصول الرواية البالغ عددها تسعة عشر فصلا.

إن شكلا روائيا كهذا - وهو يعي على إدانة دور الدولة من خلال الوثيقة (الحقيقي)، يبين الثنائية المهمة التي شكلها السرد الإبداعي عن الثمانينات المصرية، التي جعلتنا أمام ثنائية الدولة المجتمع بما يعنيه هذا من تدهور خطير في درجة التطور

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحضاري والاجتماعي المصري (العربي)، وصعوبة حقيقية في مهمة تغيير الوضع القائم والدخول في المستقبل الذي نجح في الدخول إليه الغربيون على ذات الكرة الأرضية.

والحدث في هذه الرواية حاضر بشكلين: الأول بسيط؛ غير حاد أو درامي إلا ما ندر، في مساحة روائية كبيرة هي مساحة الفصول غير الوثائقية، والثاني حاد ودرامي ضمن شكل مكثف لحضور الحدث يتم من خلال الوثيقة، في الفصول الوثائقية؛ حيث تحفل الوثائق بمعطيات حدثية مكثفة جداً ومأساوية جداً. - والحدث بشكليه يمثل رصداً لمسيرة تاريخية طويلة هي مسيرة المجتمع المصري الحديث، ويعزز الحدث وصف عميق وتفصيلي طويل لحياة المجتمع المصري وإنسانه، لذلك نرى السرد في النهاية قد تضمن قيمة معرفية كبيرة. وثمة حديث مفصل عن الحدث في هذه الرواية في الحديث عن الحبكة.

وهذه الرواية ليست رواية (أبطال) أو مثقفين ضليعين ... إن عظمة هذه الرواية بحق أنها رواية الإنسان العادي جدا: الموظف الهامشي، ابن السوق، العامل، السائق،... وقبل هؤلاء كلهم رواية المرأة المصرية النمطية؛ البسيطة، غير المثقفة، العاملة، ربة المنزل التي تحيا في شروط معيشة غاية في الصعوبة. وتمثل هذه المرأة استناداً إلى الدور الأساسي الذي قامت به لتغيير وضعها الاجتماعي وتوفير أفضل بيئة ممكنة لأولادها، وهو الدور الذي قامت به "ذات" ولم يقم به زوجها (الرجل) نموذجا حقيقياً للبطولة في المجتمعات العربية التي لم تألف البطل-الأنثى.

وفي هذه الرواية يظهر انسداد أفق التغيير المستقبلي، وأن البديل الاجتماعي المرشح للحلول محل السلطة الوطنية المصرية الحالية بديل قمعي في جوهره قد لا يقل خطورة عن السلطة القائمة. إلا أن ايديولوجية الرواية تحدد تلقائيا البديل بنقدها القائم سرديا للحياة المصرية، فهو بديل القائم. وأكثر من ذلك قد تكون الرواية بممارسمته من صورة معاناة اجتماعية رهيبة للطبقة الوسطى، قد رسمت الموقع الذي سيفجر الوضع القائم وهو الطبقة الوسطى، التي لن تخسر شيئا أمام استمرار شروط حياتها القمعية واللا إنسانية - وهنا نرى الرواية تفتح أمامنا بحثا اجتماعيا يدعونا إلى مواصلته. ختاماً فإن القيمة الإنسانية لهذه الرواية تتأسس على معاناة الإنسان "ذات" -إلى حد البكاء- من جراء القهر الطبقي والاجتماعي المتعدد الأنماط الذي تدينه الرواية.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحبكة والأحداث.

ليس ثمة حبكة في هذه الرواية بالمعنى التقليدي للحبكة، ومع ذلك فثمة خيط رابط نحسه قويا يلف السرد الكلي وبخاصة السرد غير الوثائقي؛ إذ يظل القارئ مشدوداً إلى ما يجري ل "ذات" وما تفعله أو ما ستفعله والمصير الذي ستؤول إليه وأسرتها المقهورة. وإذا عاد القارئ إلى ما كتب عن شخصية "ذات" في تحليل شخصيتها أو في التحليل الكلي للعمل فإنه سيرى إثارة عالية في هذه الشخصية التي تتغير سماتها وتتحدى واقعا قاهراً لا إنسانياً. على ذلك يمكن القول أن المؤلف قد نجح في (حبكة) الرواية وبالتالي نجح في إقناعنا وتشويقنا.

والحدث في هذه الرواية ليس كبيراً يلفت إلى ذاته، بل إن الشخصية في هذه الرواية وتحديدا شخصية "ذات" هي شخصية كبيرة تجعل الأحداث اليومية العادية التي تعيشها أو تتعرض لها ذات قيمة، لا لذات الأحداث بل لارتباط تلك الأحداث بشخصية عظيمة، ذات حسٌ إنساني رفيع واستعداد للتضحية والمواجهة. والمؤلف غاص عميقا في نقل صورة العالم الداخلي الإنساني، التلقائي، الشفاف الذي يعيش داخل "ذات" – إلى الحد الذي جعل القارئ ينبهر بحجم إنسانيتها ويتعاطف معها جداً. أي أن أحداث الرواية العادية مهمة لأن إنسانية "ذات" ستتفاعل معها بطريقة معينة إن سلبا أو إيجابا، نجاحا أو فشلا، فالأحداث عادية من النوع الذي يحدث لمعظم فئات الطبقة الوسطى ، لكنها تكتسب قيمتها من قدرتها على إيلام الشخصية أو إحباطها نتيجة ارتباط تلك الأحداث بالبعد المادي (المالي) وهو البعد المحدود جداً في شخصية "ذات" الطيبة. فهي لم تستطع أن تتعالج في مستشفى خاص لأنها فقيرة، وللسبب ذاته لم تستطع شراء لعبة لابنها، كذلك لم تتمكن وزوجها من تأثيث البيت إلا بعد فترة زمنية طويلة،... فتبكي طويلاً إزاء هذا القهر المجنون (يلاحظ أن معظم أحداث الرواية غير الوثائقية تتولد من مولّد واحد أكبر للحدث هو الرغبة في تنمية الوضع الاجتماعي تنمية جذرية).

والأحداث كذلك من النوع العادي الذي يحدث مع معظم الناس ولا سيما فئات الطبقة الوسطى ويرتبط بدرجة الوعي الاجتماعي، ومستوى الحس الإنساني لدى المجتمع أو الطبقة، حيث تعرضت "ذات" لمواقف عديدة أساءت إلى فرديتها الاجتماعية، وإلى إنسانيتها (مشاعرها الداخلية). مثال ذلك اضطهادها من بعض جاراتها أو زميلاتها أو معارفها دونما سبب منطقي، أو مقاطعتها في العمل من طرف الزميلات لاعتقادهن أنها

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شيوعية، أو تسلط زوجها عليها... فتبكي طويلا إزاء ما تتعرض له من هؤلاء البشر الأشرار.

ومن زاوية أخرى فإن تلك الأحداث ترتبط بوضع اجتماعي عام وشامل ارتباطا أساسيا لاثانويا. فتلك الأحداث ليست إلا تعبيراً عن الصراع الطبقي الحاد الذي كان هم الرواية الاساسي، حيث حددت الرواية عناصر الصراع وشكله وآفاقه كما سنرى، واستخدمت منظوراً دقيقا في ذلك وصلت دقته إلى حدية واضحة في تشخيص الصراع؛ إذ يجدر التنبه إلى وجود مساحة سردية كبيرة – نصف مساحة السرد الكلي– هي السرد الوثائقي الذي لم يكن غير رصد دور الدولة الشامل والتفصيلي في الصراع الطبقي والإنساني على أرض مصر، وإدانة هذا الدور إدانة شاملة وتحميله مسؤولية الانهيار العام بالدرجة الأولى. فالدولة الحديثة وبخاصة القمعية أقوى من المجتمع المدني في عمليات البناء أو التغيير أو المواجهة بين الطرفين.

والقصد من الكلام السابق إظهار أن الأحداث العادية التي سادت الرواية ليست إلا البنية التحتية للحدث الأكبر في الرواية وهو حدث الصراع الطبقي بشكله المبني على تعارض المجتمع المدني/ الدولة الوطنية، الذي مثل فكرة الرواية الأساسية *، وظهر روائيا عبر الشكل –تناوب سردين– . فهو حدث يستنتج بعلاقات ذهنية ولا يجد رسما له أو تكونا مباشراً داخل السرد، وهو أسلوب مألوف في الرواية الحديثة التي لا تتقيد بأكثر من منطقها الذاتي.

كذلك فإن السرد الوثائقي احتوى في تكوينه عدداً هائلاً من الأحداث التي تصنعها الدولة في المجالات المختلفة وتتضمن قدرا عاليا من الإثارة والدراما، رغم كونها موجزة.* فقد أضفت الأحداث المتضمنة في الوثائق حيوية وزخما كبيرين للعمل موضوعاً، وفنّاً، وتشويقاً.

---

* فساد جهاز الدولة الوطنية في الرواية يؤكد اتهام دور الدولة(دور الدولة: تخطيط شامل، ممارسات شاملة).

* راجع التحليل الكلي وما كتب ضمن فكرة الرواية وأسلوب السرد (ما يخص الوثيقة).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الشخصيات

- الشخصية الرئيسية " ذات".

"ذات" هي المرأة المصرية البسيطة ضمن البعد الخارجي للشخصية، وهي الشخصية المركزية في هذه الرواية. ويرسم السرد السمات الداخلية لها، فهي تملك النقاء الداخلي (البراءة)، البساطة، الطيبة، الأمومة الحميمة والعطاء، المحدودية الثقافية، القابلية للخضوع للرجل (الأب، الزوج) حتى لو كان مستبدا، والقابلية السهلة للأدلجة من جهة الثقافة السلفية وجناحها السياسي أو جهة الدولة.

تمثل شخصية "ذات" نموذجا غير (مسطح)، فهي شخصية متطورة؛ إذ أوقعت السمات الشخصية السابق ذكرها "ذات" في مشاكل عويصة أبرزها سيطرة والدها (ومن ثم زوجها) على شخصيتها وقرارها، فحدد لها زوجها ما تعمل وما لا تعمل. هكذا منعها من إكمال تعليمها الجامعي، وتجاهل احتياجاتها المادية، وأهمل إلحاحها على سفرهما خارج مصر لتحسين وضعهما المادي. كذلك كانت طيبة "ذات" وبراءتها الدافع الاساسي وراء معاملة زميلاتها لها في الصحيفة التي تميزت بالاستخفاف والتجاهل... لقد أدت عملية التسلط المتعددة الأطراف على شخصية "ذات" الطيبة البريئة والضغط الشديد الذي يمارسه عليها واقعها المادي الطبقي (تحديداً أدنى شرائح الطبقة الوسطى) إلى تحول شخصيتها تحولا حاداً بعد فترة زمنية هي الفترة التي كانت كافية لانتهاء قدرتها على احتمال التسلط والضغط بأشكالهما، أي أنها وصلت درجة الإشباع من تسلط الآخر وضغط الواقع إلى الحد الذي أدى إلى حدوث انفجار باتجاه معاكس نقيض للتسلط والضغط. فتولد لديها ثقة هائلة بالذات وقدرة على المواجهة للآخرين وللواقع وتحديهما والصمود في وجههما، فواجهت زوجها بتسلطه صارخة فيه، مدينةً اياه بصراحة، معددةً له سلبياته بما فيها تسلطه عليها - إلى الحد الذي تساءل زوجها بينه وبين نفسه: من أين جاءت بكل هذه الشجاعة؟(١) ولم يملك أمامها إلا أن يصمت. وفيما بعد حددت هي ما تعمل وما لا تعمل ضمن حياتها الاسرية والاجتماعية، دون أن تأبه لزوجها، كما تجلى في مشاريع الصناعات المنزلية الصغيرة مع جارتها.

إن التحول الإيجابي الذي طرأ على شخصية "ذات" لم يلغ الجوانب الثابتة كلها

---

(١) صنع الله ابراهيم، ذات، ط١، دار المستقبل العربي، القاهرة، ١٩٩٢، ص ١٠٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

القائمة في شخصيتها (وهي التي ذكرت في بداية التحليل) على العكس فقد حافظت عليها وبدا أنها تتعمق بمرور الزمن كالمومة والتفاني للأسرة.

لقد أبرزت هذه الرواية شخصية المرأة المصرية، التي كانت الشخصية الأساسية في هذه الرواية، ومنحتها شرف تشكيل عالم رواية لها أهمية بالغة بما تطرح، وبارتباطها باسم أحد أهم الروائيين المصريين والعرب المعاصرين هو صنع الله ابراهيم. رسمت صورة مشرقة للمرأة المصرية العامة تشكلت عندما وصلت "ذات" ليلها بنهارها على مدى عشرين عاما في سبيل تربية أبنائها وتوفير وضع مادي أفضل لهم، وعندما تصدت لقيم التسلط والذكورية في لحظة حساب تاريخية مع زوجها (بل رسمت الرواية صورة معاكسة للرجل فيما هو سؤال مثير تطرحه الرواية على القارئ للبحث في سيكولوجية الرجل المصري العام والمفاضلة بينه وبين نظيرته حوّاء).

- الشخصية الرئيسية الثانية "عبدالمجيد".

هو زوج "ذات". يلتقي مع زوجته في سمات معينة وفي الانتماء الاجتماعي للطبقة الوسطى وتحديداً الشريحة المعانية فيها. فعبدالمجيد موظف صغير في بنك، وضمن البعد الداخلي لشخصيته المرسومة في السرد فهو محدود الثقافة، قابل للأدلجة بسهولة، متدين بالفطرة. وهناك سمات أخرى تميزه هو دون زوجته هي ميله إلى الانسجام مع واقعه السلبي لاسيما في مسألة الارتقاء بالوضع المادي للأسرة والسفر للخارج- حيث رفض فكرة السفر طوال عشرين عاما دونما مبرر مقنع ولم يعمل أي عمل إضافي إلى جانب وظيفته الوحيدة، وهو متسلط في سلوكه مع زوجته وبليد في مشاعر وتصرفاته تجاه الآخرين. عبدالمجيد شخصية غير متطورة ومع ذلك فهي ليست شخصية افتراضية لا تمت إلى الواقع، إذ يمكن وجودها ...

- الشخصيات غير الرئيسية.

رسم المؤلف جوانب معينة من الشخصيات غير الرئيسية، أي دون أن يتطرق إلى جميع سماتها ودون أن يتعمق دائما في تحليل السمة التي يعرض لها - لأن الشخصيات ليست رئيسية... فالشخصيات التي تراوحت بين أقرباء "ذات" و"عبدالمجيد" أو جيران لهما أو أصدقاء أو معارف أو بشر يتم الاحتكاك بهم والتعامل معهم أثناء ممارسة الحياة اليومية مثل: البائعين، والسائقين، والموظفين، والأطباء، والمتدينين... هي شخصيات

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تحمل جزئيا أو كليا سمات شخصيتي ذات وعبدالمجيد الذين يقدمهما السرد باعتبارهما النموذج النمطي للمرأة والرجل الممثلين لأكبر شرائح الطبقة الوسطى المصرية، المعبرين عن سيكولوجيتها واتجاهها التاريخي – حيث أن الطبقة الوسطى هي أكبر طبقة في مجتمع المصري والعربي.

ونظراً لغياب الفواصل الحقيقية بين أكثر شريحة معانية في الطبقة الوسطى وبين الطبقة العاملة، فإن شخصيتي ذات وعبدالمجيد مثلتا الطبقة العاملة تمثيلا نسبياً. وتظهر الفصول السردية الأخيرة التداخل والتقارب الطبقيين والسيكولوجين بين الطبقتين المذكورتين، وهو تداخل وتقارب قائم على التشارك في القهر المادي، وتجلى ذلك في شخصية الشغالة التي تأتي لتنظف بيت ذات.

ونهاية فنحن أمام شخصيات واقعية لا يوجد ما يمنع منطقياً، واجتماعيا، وتاريخياً أن تكون موجودة بالسمات التي رسمها المؤلف، وثمة انسجام بين شخصياته وبين الواقع الذي جعلها تتحرك فيه، الصراع الذي شكلته الرؤية الروائية (بين المجتمع والدولة).

الأسلوب واللغة

لقد كانت العفوية، والسلاسة، والبساطة المدهشة أبرز سمات فصول السرد غير الوثائقي، وقد تعززت الخصائص الأسلوبية السابقة إذ سيطر راوٍ تقليدي يروي بضمير الغائب ويتحرك في حدود لا نهائية من الأفعال الماضية، وإذ يستخدم هذا الراوي أسلوب التقويس معلقا أو مفسراً...

وأمام أسلوب هذه الرواية نشعر أننا أمام أسلوب عريق عرف عن فن الرواية؛ فهذا الأسلوب يرتبط بأبنية سردية شديدة التفصيل والتوسع (كما هو حاصل في هذه الرواية)، وكان التأمل المتكرر في أسلوب هذه الرواية يدفع إلى الذهن اقتراناً هو: أسلوب حرّ جداً.

وتتبدى عفوية الأسلوب وسلاسته وبساطته في شعور القارئ بأن أي شخص يمكنه أن يقص المادة المسرودة – مع فارق التضمينات الثقافية المتعددة المستويات – وفي سهولة انتقال السارد من فقرة إلى أخرى ومن جملة إلى أخرى... فيرى القارئ أنه أمام أسلوب دافق جداً إذ هو يدفع القارئ باستمرار نحو متابعة المسرود اللاحق. تصلح معظم فقرات السرد الروائي مثلاً (نستثنى الوثائق).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويتبدى الارتباط بين أسلوب حر جداً وأبنية سردية تفصيلية وتوسعية، في تخفيف الأسلوب السابق من ضغط المسرود التفصيلي والتوسعي. فالرواية تتحدث بتفصيل ممل عن أثاث المنازل وإصلاحها، عن السلع الاستهلاكية،... والأسلوب يحمل في طبيعته الذاتية عفوية، وسلاسة، وبساطة، - (حرية). انظر مثلا الفقرتين التاليتين وتمعن أسلوب الربط بينهما وأسلوب ترابط الجمل في الفقرة الواحدة "مناسبة أخرى لمزيد من قبلات الوجنات ولتأمل آثار الزمن: الخيوط البيضاء في الشعر الملموم، بشائر الجيوب أسفل العينين، الثديين المتهدلين تحت الجلبية الكستور، بالإضافة إلى شيء آخر في نظرة العينين أو مسحة الوجه أو لون البشرة، لا علاقة له بصفية القديمة، أو لعله الحركة البطيئة المتمهلة لمن كانت تمشي وكأنها تقفز.

التي جاءت تحكي كان عليها أن تستمع إلى قصة طويلة، مروية على طريقة الروايات السائدة، أي بالتفصيل الممل، الذي يتجنب كل ما هو جوهري، وبمساحة واسعة لأكاذيب صغيرة بدأت بنفس الإجابة (الحمد لله) عن كل سؤال، ثم انكمشت بالتدريج لحساب الحقائق: عزيز لم يعد صحيا كما كان من قبل، التردد المستمر على المعتقلات وأقسام الشرطة (آخر مرة عندما انفجرت مواسير المجاري في العيد) أصابه بالسكر والضغط، وبسبب عزيز فصلت من عملها (العلاقات العامة) بشركة الكروم، وهناك قضية أمام المحاكم، سيستغرق الفصل فيها عدة سنوات، ولهذا اضطرت للعمل في التدريس، وحصلت على عقد العمل في السعودية، لكن عزيز غير موافق (رغم أنه من الممكن إيجاد عمل له هناك أيضا) والأولاد كبروا: آخر العنقود تريد أن تتعلم البيانو، ومصطفى يحتاج إلى دروس خصوصية، أما الأكبر، عادل، فيطالب بسيارة يذهب بها إلى الجامعة ("عندنا واحدة متهالكة ١٢٨، وأنت؟ " بخجل: "لسه")، ثم الشقة، انظري حولك.(١)

ولقد ظهرت السخرية، والفكاهة، والتشويق عناصر أخرى في أسلوب الرواية، مع تراجع قوة أحدها (التشويق)، ربما لنوعية المادة السردية لهذه الرواية، فهي مادة ذات طابع وصفي-رصدي-تحليلي، معنية برسم صورة كبيرة حقيقية لمجتمع مصر. وفي

---

(١) صنع الله ابراهيم، ذات، ط١ ، دار المستقبل العربي، القاهرة، ١٩٩٢، ص١١٨، ١١٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أكثر الأحيان كان التشويق يأتي صريحا في الدلالة عليه كأن يقول السارد (كما سنرى، وهو ما سيحصل عندما،...).

لقد كانت السخرية والفكاهة من العناصر الأسلوبية القوية في هذه الرواية، فهي ذات أبعاد دلالية مهمة تتفاعل مع معطيات النص الأساسي بما تحتوي من النقد والتعليل المتحقق بين إيديولوجيات الرواية. على نحو ما نرى في الفقرة التالية عن نساء مصر وشارع الهرم" تتميز المرأة المصرية، كأغلب النساء في كل زمان ومكان، بقدرتها على تدبير احتياجاتها بنفسها، كما يشهد على ذلك شارع الهرم. لكن هذا الطريق ذي الشهرة العالمية (في بلاد القمامة الثمينة على الأقل) كان مغلقا في وجه ذات لاعتبارات عديدة، يتعلق بعضها بالاقتصاد وقوانينه (مثل قانون العرض والطلب)، ويتصل البعض الآخر بالخوف الغريزي الذي أثارته تجربة مدام سهير، ساكنة الشقة المفروشة. ذلك أن موظف الزراعة غضب لتردد الأخوة الخليجيين على مدام سهير، فأقدم على خطوتين متزامنتين: جمع براز القطط المتناثر على السلم ودهن به باب شقتها، وقام بتركيب جهاز بث وتلق (انتركوم) إلى جوار باب الشقة" (١)

ونلاحظ أن البعد الفكاهي في هذه الرواية قد خفف قليلا من ثقل بنيتها التقليدية (نستثني الوثائق)، وأشاع روحا مصريا حقيقيا في ثنايا هذا العمل الرمزي. كذلك نلاحظ استخدام السارد تسميات ومفاهيم خاصة مثل (ماكينات البث) قاصداً معظم شخصياته، باعتبار البث هنا مفهوما دالا على الاستلاب العام والمحدودية الثقافية، ومثل (سياسة الاعتماد على النفس) قاصداً ممارسة المتزوجين للجنس ممارسة فردية (الاستمناء مثلاً).

أما أسلوب الوثيقة، فهو بارع من حيث هو وسيلة تشكيل أوبناء في العمل الفني، تكمن قوته في بنيته الذاتية (الوثائقية) بما تمتلكه من مصداقية، تزيد عندما تتكرر الوثيقة الدالة على فكرة محددة. لاحظ مثلا الفصل الثاني / الاثراء غير المشروع لكبار موظفي الدولة، ومعظم معطيات فصول الوثائق .

وقد تنوع المسرود اللغوي في هذه الرواية بين فصحى وعامية، مفردة عادية ومفردة (مثقفة)، مفردة مهذبة وأخرى بذيئة (وهذه ميزة مهمة لهذه الرواية نظراً لعدم تقبل شريحة عريضة من المجتمع العربي لها. انظر تكرار مفردات تمثل لغة الفظاظة من

---

(١) صنع الله ابراهيم، ذات، ط١ ، دار المستقبل العربي، القاهرة، ١٩٩٢، ص ٥٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مثل بظر، نتوء، فخذ، ثدي، ... مع الاشارة إلى ما يقوله المؤلف في بداية الرواية عن قمع رقابي تعرضت له روايته). إن ما يعكسه تنوع المفردات السابق هو تنوع العالم الروائي ذاته (تعدده) المرتبط في العمق بالإبداعية الروائية ذاتها.

البنية الدلالية

تلتقي كل مظاهر الحياة الاجتماعية الواردة في الفصل الأول في كونها مظاهر حياة الطبقة الوسطى المصرية أكبر طبقة في المجتمع المصري، فيكثر عدد الأشخاص الواردين في السرد، وتتداخل الأحداث، وتتعدد أشكال الحياة الاجتماعية الموصوفة-في حين يبقى محور كامن في العناصر السابقة كلها يلفت إلى ذاته باعتباره المحور الأكثر قوة وقدرة على ربط العناصر السابقة بعضها ببعض *، لاسيما أن العناصر السابقة لا تأتلف بقوة قصة نمطية تهيمن فيها حبكة بارعة على العالم الكلي للسرد عبر شبكة سببية متنامية، بل تتماسك بإرادة السرد التي يتبين أنها تقص سيرة ذاتية لشخصية واحدة، إذ يسوّغ وجود الصور المتعددة للحياة الاجتماعية من خلال ممارسة المرأة "ذات" لوجودها الاجتماعي وبالتحديد الزواج والعمل.

إن المحور الكامن المذكور هو الموقع الطبقي داخل البنية الطبقية للمجتمع المصري، وهو موقع الطبقة الوسطى (الموظفة) وتحديداً أضعف شرائح هذه الطبقة في بنية الطبقة الوسطى ذاتها، أي أدنى شريحة في التراتبية الطبقية الوسطوية أو أدنى الشرائح إن أردنا... وهو ما يظهره السرد ويوشك أن يقول إنه معني فقط بهذا الإظهار.

وعلى الرغم من أن معطيات الطبقة الوسطى الواردة في الفصل الأول: وضعها الطبقي، عاداتها، أنماط تفكيرها، المؤثرات الخارجية على سلوكها،... لا تكشف الاتجاه الدلالي الأساسي للسرد المشغول بهموم الطبقة الوسطى، فإن إيحاءً قويا كان يتولد من المعطيات السابقة نفسها، ومن اجتماعها معا، يدفع إلى الاعتقاد بهيمنة موضوع الصراع

---

* حسب التحليل البنيوي تتحدد ماهية القصة في علاقات الأشخاص بمحيطهم وعلاقاتهم ببعضهم بعضا وبنظام سير الأحداث. د. جوزيف شريم، دليل الدراسات الأسلوبية، ط١، المؤسسة الجامعية، بيروت، ١٩٨٤، ص١٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الطبقي الداخلي (في المجتمع المصري). وهو الذي ستؤكد صحته فيما بعد فصول الرواية.

وبالاستناد إلى الخلفية السابقة التي حاولت العثور على ترابطٍ أكبر، ودلالة كلية كامنة تتحقق في العالم الكلي لسرد الفصل الأول، يمكن أن نفهم معنى التوالي الموضوعاتي الذي يتم بقوة التركيب أكثر من التسبيب (يعين عليه راو كلي العلم، يكشف عن علمه الكلي من أول سطر في الرواية، ويستخدم التقويس الذي يقول فيه ما يشاء وينتقل فيه إلى الزمن الذي يشاء) للموضوعات التالية:

- ختان "ذات" وهي صغيرة والألم الشديد الموضعي والمعنوي نتيجة عملية الختان. (عادات)
- رقابة أمّ "ذات" على ابنتها وخطيبها أثناء جلوسهما لمشاهدة التلفزيون، إذ شغلت الأم بهم أولي هو ألا ينكشف فخذا "ذات" ل "عبدالمجيد" . (عادات).
- "الضروريات الذهبية" - كما يسميها الراوي - التي كان "مسلحا بها عبدالمجيد": "علبة السجائر والولاعة (رونسون)، الخاتم، عطر أولدسبايس، الحذاء الضيق المدبب، معرفته بأنواع الطعام وبروتوكولاتها، شكوى دائمة من سياسة الدولة المتحيزة للقطاع العام والتصنيع، طريقة متعالية في الإشارة لسائقي التاكسي تجبرهم على التوقف وتملأ ذات بالزهو، أهمية بالغة يضفيها على كل حرف يخرج من بين شفتيه، آراء قاطعة في مختلف الأمور يدلى بها في ثقة تجبر الآخرين (أو على الأقل ذات) على الاقتناع بها،... (سلوك الطبقة المتوسطة - اتجاهات تفكيرها).
- عبدالمجيد لا يحمل شهادة جامعية.
- إنجازات الناصرية التصنيعية (سخان وبوتوجاز المصانع الحربية، ثلاجة ايديال، غسالة الأومو،...) التي أتيحت لكل بيت.
- كبت وحرمان جنسي لدى عبد المجيد.
- زواج ذات وعبدالمجيد وانتقالهما إلى شقة مستقلة بمواصفات سيئة جداً سببت بكاء شديداً ل "ذات" فور إدراكها أن حياتها الجديدة ستولد في هذه الشقة بخلاف قريبات وقرينات لها.
- "تمنعنا ظروف النشر الراهنة من التعرض بالتفصيل لواحدة من أخطر اللحظات في حياة كل من ذات وعبدالمجيد..." يقصد الراوي لحظة المداعبة والجماع يوم الزفاف.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- بكاء "عبدالمجيد" لشكه أن زوجته ليست بكراً ثم انتفاء هذا الشك بعد ظهور قرائن معينة وقسم "ذات " على كتاب الله.
- رفض "عبدالمجيد" إعلان زوجته رغبتها مواصلة دراستها الجامعية "ومن جديد رسم عبدالمجيد الحدود: داخل البيت لها وخارجه له"
- استقبال "ذات" الحدود المقترحة بشيء من الارتياح واستكانتها إلى المظلة المتينة المهداة إليها التي مثلت امتداداً طبيعياً لمظلة أبيها.
- صعوبة بالغة في التركيز (الضروري للدراسة) وحالة تمتطي فيها الكلمات ظهر بعضها فتختلط الألفاظ والمعاني عند القراءة أو الكتابة لدى ذات بسبب عملية الختان التي أجريت لها في طفولتها.
- مبادرة عبدالمجيد إلى الإعلان عن ضرورة أن تعمل "ذات" حيث "أن بقاءها في المنزل ليس له "ميننج"...
- اهتزاز وضعف شخصية "ذات" نتيجة استبداد زوجها بأمور البيت وأمورها. إذ حتى الأعمال الوحيدة التي تجيدها وهي أعمال المنزل "كثيرا ما تختلط عليها تحت وقع نظرات عبدالمجيد الصارمة فتضع الملح بدلا من السكر أو الخل بدلا من ماء الورد أو تتجمد أمام حلة اللبن أو تنكة القهوة مترددة بشأن اللحظة الملائمة لابعادهما عن النار إلى أن تفور محتوياتهما "
- عبدالمجيد يجد عملاً لزوجته في صحيفة يومية عن طريق أحد مديريها الذي كان من عملاء البنك، في قسم لا يتطلب أي موهبة على الإطلاق يتلخص في مراجعة المواد المنشورة لاكتشاف الأخطاء المطبعية واللغوية...
- رقابة الدولة على الصحف.
- أمينوفيس فلتس قلته رئيس القسم الذي تعمل فيه "ذات" يعمل منذ سنوات في إعداد موسوعة ضخمة للشخصيات المعروفة التي زارت القاهرة " (بصفتها عاصمة حركات التحرر في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية) "
- أمينوفيس يمارس فساداً وظيفياً.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- اتهام المباحث الساداتية ل أمينوفيس بعضوية التنظيم السري الذي شكله عبدالناصر، وقسم أمينوفيس أنه لم يهتم بالسياسة في يوم من الأيام، ثم انتفاء التهمة عنه.
- أمينوفيس يصبح نائب رئيس التحرير.
- جلسات حديث الموظفات العاملات مع "ذات" في القسم عن المشتريات والمكياج والأزواج والأطفال...
- مظاهر فساد إداري واجتماعي.
- تلقي عبدالمجيد بغير مبالاة أنباء الفضائح والمباذل، وباهتمام واضح قصص الثروات الضخمة التي تتكون بين يوم وليلة، وهي أخبار تنقلها له "ذات" التي تستمع إلى ما يدور في جلسات حديث زميلاتها.
- احتجاج "ذات" على إزالة صورة الزعيم "جمال عبدالناصر" من القسم بعد اغتيال السادات واتهامها من طرف زميلاتها بالشيوعية، ومقاطعتها، ونقلها إلى قسم آخر.
- انغماس كلي لوعي زميلات "ذات" الجدد (في القسم الجديد) في الاستهلاك وثقافته، كما زميلات القسم السابق.
- عداء الزميلات الجدد ل "ذات" إلى درجة المقاطعة مما أشعر "ذات" برغبة في البكاء وهي بينهن عاودتها عند الانصراف. ويرجع العداء إلى أحد عاملين أو كليهما: تهمة الشيوعية، ضعف شخصيتها.
- "ذات" ربة بيت ممتازة، منظمة ومقتصدة.
- "ذات" تحاول أن تجمع أي حديث يمكن أن يعزز مكانتها كفرد لدى الزميلات فتفشل. لكنها لا تيأس "فما أن تنتهي من ذرف الدموع المناسبة، حتى تحاول من جديد "

* * *

تطبق سلبية رهيبة على معطيات العالم الإنساني وحياته الاجتماعية الواردة في الفصل الأول ولا يكاد ينبعث أي خيط إيجابي –وهي دلالة لها قيمتها في سياق الفهم النقدي الكلي للعمل كما سنرى.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تتكون هذه الرواية من تسعة عشر فصلا، فالفصول الفردية ومنها سيرة "ذات" عبارة عن سرد روائي غير وثائقي، والزوجية مواد وثائقية مأخوذة من صحف مصرية- تتحدث عن مظاهر مختلفة لفساد جهاز الدولة والجهاز الإداري في مصر.

إن التعاقب السابق: سيرة (فردي) ← وثائق (زوجي) ← سيرة (فردي) ← وثائق (زوجي) ← ... يلزم الناقد من البداية أن يتعامل مع هذه الرواية باعتبارها سيرورة سردية واحدة (متصلة خطيا)، فيكون التوالي السابق انقساما (تفاعلاً) موضوعيا ودلاليا هو بالضبط الشكل الممكن (أو النسق الممكن) المنجز روائيا، فلا يمكن فهم آلية اشتغال الرواية وخطابها أودلالتها -التي وجدت الرواية لأجلها- إلا بقراءة الرواية باعتبارها ذلك الانقسام والمستوى الخطي المتصل. هكذا لن تكتسب "ذات" المرأة والرواية قيمتها من دخول "ذات" في علاقات مركبة متتالية لها حيثياتها، فحسب: ذات ← عروس، ذات ← موظفة، ذات ← أم، بل كذلك من انقسام العلاقات السابقة موضوعيا / دلاليا مع العنصر الثاني في البناء الشكلي للرواية (فصول الوثائق) حيث يعني التساوي في القيمة للدورين : ذات (الطبقة الوسطى) والوثائق (الدولة)، التعادل الوظيفي بينهما كعناصر بناء للشكل الروائي ذاته.

❋ ❋ ❋

إن بناء وحدة أسرية جديدة في المجتمع المصري أواسط الستينات - أسرة "ذات" و"عبدالمجيد" - هو بناء نمطي في المجتمع المصري في سياق واقع الطبقة الوسطى وعملية حراكها الاجتماعي -الطبقة المذكورة أكبر طبقة في المجتمع المصري والعربي عموما-. وهو كذلك بداية سيرورة تاريخية لهذه الطبقة المتوسطة تولد سرديا في المعاناة - إلى درجة البكاء - الذي بدأ (ودائما "ذات" من يبكي) نتيجة موقع شقة الزوجية، وتواصل بشكل مأساوي بينما "ذات" تتأمل نجاح قريناتها في تطوير أوضاعهم المادية والمظهرية -لا الطبقية الجذرية- كتغيير الشقة، أو اقتناء سيارة، أو تغيير أثاث وبلاط المنزل، أو تغيير مستوى مدارس الأولاد... دون أن تنجح هي فيما نجحن "لم يكن ماراثون البث وحده هو المسؤول عن تدفق إفرازات ذات الدمعية، فالغدد الدقيقة القابعة خلف عينيها اللتين طالما أطرى عبدالمجيد جمالهما أيام بركة البط كانت تنشط بفعل عوامل كثيرة متنوعة من قبيل صعود ابنة خالتها عفاف من شقة البدروم إلى أخرى تدخلها الشمس وتطل على البحري، وزواج زينب بلا شقة وسفرها إلى الخليج مباشرة ثم

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عودتها بسيارة فارهة وديب فريز يتسع لاحتياجات مطعم كامل، وانتقال منال من أمريكا إلى جنيف.."[1]، ثم تواصل بسبب استمرار هذه الأوضاع وغيرها طيلة الفصول السردية للرواية.

هكذا ستتبني السيرورة السردية (غير الوثائقية) حتى نهايتها على سلسلة طويلة من المحاولات تقوم بها "ذات" و"عبدالمجيد" الأسرة من الطبقة المتوسطة، لتحقيق الصعود الطبقي الذي تكشف عبر سيرورة الأحداث أنه محض وهم، وأن ما يقومان به فعلا هو محاولة تطوير محدود لوضعهما المادي والمظهري. فبدءًا من تعاون ذات وعبدالمجيد مع أسرة مجاورة "سميحة" و"الشنقيطي"، لإنتاج صناعات بيتية صغيرة والاتجار ببضائع تجلب من "بورسعيد" (المنطقة الحرة)، ثم دخول عبدالمجيد مع الشنقيطي في وكالات مقاولات قطاع خاص حتى محاولة الإثراء السريع عبر شركات توظيف الأموال... كانت النهاية لهذه المحاولات واحدة: الفشل، أوائل الثمانينات.

إن فشلا من ذلك النوع كان يراكم انفجاراً تحققت لحظته التاريخية في مواجهة حاسمة بين ذات وعبدالمجيد "المواجهة الجديدة أتاحت لذات التلميح بغلطة العمر التي ارتكبتها فضلا عن تحديد الثوابت: أنها أضاعت عمرها في المطبخ وتربية البنين ورعاية عبدالمجيد، وأن المهام العاجلة لا تتوقف على اللحاق بالمسيرة (الاستهلاكية) وإنما تتعداها إلى الاستعداد من الآن لزواج البنين.

اختتم عبدالمجيد دفاعا تقليديا عن النفس بسؤال: "أعمل إيه؟ .. أسرق؟ "

وردت على الفور: وماله .. فيها إيه؟ ثم عاجلته بسؤال آخر حسم الجولة (لأنه لم يتمكن من الإجابة عليه): لماذا لا يسافر مثل الآخرين للعمل في الخارج؟

انقضت جلسة الحوار بالتجاء كل منهما إلى قاعدته: هو إلى الفراش وهي إلى المرحاض (المبكى)". (١٠٢:١)

ورغم تكرار النهايات الفاشلة لمحاولة الصعود الطبقي بعد هذه المواجهة فإن مواجهة مماثلة من هذا النوع لم تحدث. ليس لأن انفراجاً في الأزمة قد حدث، بل ستنتهي السيرورة السردية مع بقاء الأزمة ذاتها دون التقدم نحو حلها خطوة حقيقية واحدة. وربما

---

(١) صنع الله ابراهيم، ذات، الطبعة الأولى، دار المستقبل العربي، القاهرة، ص ٥١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أدركت "ذات" هذا المسار منذ بداية زواجها وتجاربها في العمل فاستسلمت ليأس تحول إلى تكيف مع نمط حياة تدرك في قرارة نفسها أنه لن يتغير إلا بأحد الحلين اللذين طرحتهما على زوجها في لحظة المواجهة التاريخية – حيث لن يستجيب لها زوجها في كلا الحلين دون أن يعني هذا أنه وجد حلا آخر.

أما الأسر المتعددة التي وردت في السيرورة الكلية للسرد فقد كانت ترد في سياق موقعة سردية معينة ثابتة، هي موقع الطبقة الوسطى. وفي السياق السابق كانت الأسر السابقة ترد في سيرورة اجتماعية تنجح في تطوير وضعها المادي والمظهري الطبقي الجذري. وهي سيرورة موازية لسيرورة أخرى لشرائح أخرى في الطبقة المتوسطة هي شريحة ذات وزوجها وسميحة وزوجها التي لم تنجح في التطوير ذاته رغم المساعي الكبيرة والجهود المتصلة والمضنية طوال ساعات اليوم والسنوات العشرين من أواخر الستينات إلى أواخر الثمانينات.

وإذ تتقاطع السيرورتان في شبكة اتصالية اجتماعية تلقائية عبر القرابة أو الجيرة أو الصداقة... فإن الشبكة السردية التي تحوي الشبكة المذكورة تكشف عن ارتباطات اجتماعية محددة للأسر التي نجحت في تطوير وضعها المادي والمظهري، فإما أن يكون الزوج موظفا في منصب (جيد) في إحدى مؤسسات الدولة، أو أن تكون الأسرة قضت عمراً طويلا في دول الخليج.

ويتضح في ضوء ما سبق أن الهم الاساسي للسرد غير الوثائقي هو حالة الحصار الطبقي الرهيب على أغلبية أسر الطبقة الوسطى في السرد، ممثلة بذات و سميحة وأسرتيهما. إذ لا يمنع الحصار (الطبقي) انتقالها الطبقي فحسب بل تطوير وضعها داخل نفس الطبقة. وعلى الرغم من طرح "ذات" مبادرتها الذاتية للحل الجذري من خلال :

- الفساد الوظيفي والاجتماعي (وهو محفوف بمخاطر كبيرة مثل السجن).
- السفر إلى الخارج للعمل (وهو إذا كان متاحاً للأغلبية (افتراض) فإن فرصة العمل المجزية ليست كذلك...).

كانت الحقيقة الناجزة الكبرى، فشل الحل الذاتي التاريخي الطويل لـ "ذات" وأسرتها و"سميحة" وأسرتها – بما هما رمز أكبر شريحة في أكبر طبقة في المجتمع المصري – في تجاوز الوضع الطبقي أو حتى تطويره على مدى عشرين عاما بدأت

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أواخر الستينات وانتهت أواخر الثمانينات. وإن ما يعكسه خيارا "ذات" الجذريان هو اختلال قائم في التركيبة الاجتماعية المصرية ينطوي على دور سلبي كبير لجهاز السلطة هناك باعتباره المتحكم الحقيقي في التركيبة الاجتماعية -كما يعكس الأزمة الطاحنة للطبقة المتوسطة التي تحل عليها اللعنة بانحصار منافذها للتطور الاجتماعي الجذري في منفذين أحدهما محفوف بالمخاطر والآخر يقتصر على عدد محدد من السكان الذين يقتربون من ستين مليونا. فلا تلام "ذات" (بما تمثله) على مفهومها للحل إذ يمثل الحل نفسه ناتجا للتركيبة الاجتماعية التي تتيحه ولا تتيح غيره، وهي تركيبة أكبر من "ذات" وأقوى منها (القيادة الاجتماعية) جعلت "ذات" تتحطم كل أيام الأعوام العشرين -منذ زواجها أواسط الستينات، وتذهب مع كل تحطم إلى المرحاض تغلق بابه عليها وتبكي.

حضور الشكل-حضور النسق

إن السلوك الاستكشافي للمبدع يتجه عامدا أو غير عامد إلى ربط كل عناصر العمل معا ليس من ناحية البناء فحسب ولكن من حيث البناء والوظيفة معا (١) .

وضمن الإضاءة السابقة سيمكن رؤية الفصول الوثيقة، وهي نصف الرواية، باعتبارها انقساما حواريا مع الفصول غير الوثائقية، إذ يظهر خيط رابط أساسي بين محتويات الفصول-الوثيقة هو كونها كلها مظاهر اختلال في البناء الاجتماعي بمختلف أوجهه، مع ملاحظة ارتباط معظم تلك المظاهر بالسلطة الحاكمة وهياكل الدولة. والاختلال المتحقق ضمن معطيات محتوى الفصول-الوثائق هو أحد أخطر أسوأ تشكلات بنيوية ممكنة لفساد حكم ودولة حديثين، إلا أن السرد-الوثيقة يعمل على توسيع مساحة بعينها في المساحة الكلية للاختلال تشكل من المساحة الكلية معظمها هي مساحة السلوك الاقتصادي الكلي للنظام الحاكم الممكن وصفه اجتماعيا على أساس نوعية المعطيات في هذا السياق بأنه الاتجاه الفعلي للنظام الحاكم، وهياكل دولته، وفئات اجتماعية معينة نحو جعل مادة الاقتصاد الوطني، ومؤسسات القطاع العام موضوعا لاستغلال وإثراء فاحشين لهم. والنظام الحاكم في سبيل هذا يتجاوز القوانين التشريعية والأحكام القضائية (مستغلا

---

(١) د. مصري حنوره، الاسس النفسية للإبداع الفني، ط١، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٠، ص٢٧٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

موقعه كأكبر سلطة اجتماعية) بل أكثر من ذلك إنه ينشئ تشريعات قانونية تتضمن ثغرات مدروسة لتسهيل عملية النهب دون انكشاف أوعقاب.

لنأخذ النماذج الدالة التالية من كل الفصول-الوثيقة دون أن نقصرها على تلك الدالة على السلوك الاقتصادي الكلي للنظام،

من الفصل الثاني :

- محاكمة مدير أمن رئاسة الجمهورية بتهمة تكوين ثروة عن طريق الكسب غير المشروع.
- المدعي العام الاشتراكي عبد القادر أحمد علي يتهم وزير الاقتصاد المستقيل د.مصطفى السعيد بتسخير منصبه لتحقيق مكاسب له ولأقاربه.
- د. مصطفى السعيد : "المدعي الاشتراكي عبد القادر أحمد علي استخدام نفوذه في الحصول على تسهيلات ائتمانية له ولزوجته وبعض أقاربه من البنوك وبدون أي ضمانات.

من الفصل الرابع:

- الصحف المصرية تعلن عن توقيع عقد السيارة الشعبية المصرية مائة في المائة مع شركة جنرال موتورز الأمريكية.
- خبراء وزارة الصناعة المصرية: "عقد جنرال موتورز يؤدي إلى إهدار ملايين الجنيهات التي انفقت على بناء شركة النصر المصرية لصناعة السيارات (ق ع) وضياع خبرة ربع قرن في تصنيع السيارة الإيطالية "فيات" وتغيير كل شيء.
- اختفاء قطع غيار بمليون جنيه من مخازن شركة النصر للسيارات.
- د. رفعت المحجوب ينهي دورة مجلس الشعب بطريقة متعمدة قبل النظرفي طلب إحاطة للمعارضة حول مشروع جنرال موتورز.
- المعارضة المصرية: "عقد جنرال موتورز يعني تسليم قاعدة إنتاج السيارات المصرية إلى شركة أمريكية كبرى.
- الصحف: "جنرال موتورز تطلب من بنوك القطاع العام الأربع قرضا قيمته مائة مليون جنيه مصري لتمويل عمليتها في مصر.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من الفصل السادس:

- محكمة القيم تعيد تقدير أموال عصمت السادات المطلوب مصادرتها بمبلغ ٧٨مليونا من الجنيهات بدلاً من ١٢٦ مليوناً.
- الشيخ الشعراوي: "الذين ينامون علىصوت موسيقى بيتهوفن لا يعرفون الله".
- الأحياء الشعبية في الاسكندرية تغرق في مياه المجاري بعد بدء تشغيل المرحلة الأولى من مشروع الصرف الصحي العاجل الذي رصدت له الدولة أكثر من ستين مليون جنيه. الأهالي يذهبون إلى المحافظ فيحتجز بعضهم ويأمر باعتقال البعض الآخر.

من الفصل الثامن:

- تعيين ١٤ لواءً وعميداً متقاعدين بشركات القطاع العام للإسكان والمقاولات بمرتب شهري قدره ٦٠٠ جنيه إضافة إلى معاشاتهم من القوات المسلحة.
- الحجز على ممتلكات شركة الكسى شوبنج كومبلكس بعد أن اقترض صاحبها محمود إسماعيل ١٧ مليون جنيه من بنك مصر و١٧ مليونا أخرى من بنك القاهرة و٤ و٢ مليونا من المصرف العربي الدولي ثم هرب إلى الخارج.
- مديرية الطرق والكباري بالدقهلية تعد خريطة مزورة تؤدي إلى تغيير مسار طريق شربين طلخا أمام قرية ديسط بحيث يحترق مساحة مائة فدان زراعية يملكها ١٥٠ من المعدمين وذلك لتلافي هدم منزلين.
- الجماعة الإسلامية في المنيا تدعو لامتحان إسلام الفيلسوف الفرنسي جارودي بالختان: "إننا لا نرى في هذا الأمر تضحية بل دليلاً، ولا نطلبه امتحانا بل برهانا، ولا نقصده إذعانا بل عرفانا، ومعاذ الله أن يخشى العبد عذاب ساعة، إذا كان حقا يخشى عذاب الساعة "
- الأسرة المصرية تنفق بين ٥٠ في المائة و٩٠ في المائة من دخلها على الغذاء فقط بسبب الغلاء المتزايد.
- الأمن المركزي يفض اعتصام سائقي السكة الحديد بالهراوات الكهربائية.

من الفصل العاشر:

- صحيفة أمريكية: "الأمن المركزي في مصر جيش مواز يتألف من ربع مليون فرد تم انتقاؤهم بعناية من بين الأميين ومن القرى النائية والمتخلفة وعهد إليهم بحراسة البنوك

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والسفارات والفنادق الكبرى فضلا عن فض المظاهرات، وتم تدريبهم بطريقة تجمع بين غسيل المخ والإذلال لتحويلهم إلى أدوات طيّعة في أيدي رؤسائهم "

- جندي أمن مركزي: "تتقاضى ستة جنيهات في الشهر هي ثمن رغيف خبز مستورد في فندق جولي فيل "

من الفصل الثاني عشر :

- جماعة الجهاد: "قتال الطوائف الممتنعة عن شرع الله في الداخل أهم من قتال اليهود في فلسطين لإرجاع بيت المقدس "

من الفصل الرابع عشر :

- جبن مستورد فاسد يقتل ٤٢ تلميذا بالتسمم.
- الصحف الألمانية تكشف عن صفقة ألبان ملوثة بالإشعاع بيعت لشركة استيراد مصرية يملكها ابن أحد كبار المسؤولين مقابل مائة ألف مارك فقط، رغم أن ثمنها الأصلي ثلاثة ملايين مارك، وأكدت الصحف الألمانية أن الصفقة دخلت مصر.

من الفصل السادس عشر: (هذا الفصل مخصص لظاهرة شركات توظيف الأموال المصرية التي ظهرت في الثمانينات وشغلت الرأي العام بما أظهرته من إمكانات الإثراء السريع لمودعيها، إلى أن سقطت فريسة عوامل متعددة. لكنها بسقوطها أضاعت حقوق مئات الآلاف من المواطنين المصريين المودعين لديها، ولما كان مسؤولون مصريون كبار وكثيرون متورطين في فضائح معاملات ورشاوى مع هذه الشركات سحبت القضية كلها من المحاكم وصدر قرار بحفظهما).

- أقوال الريان في التحقيق تتحول إلى القضية رقم ١٣٣ لسنة ١٩٨٨ مصر الجديدة تحقيق نيابة المكافحة والمتهم فيها مسؤول كبير في الدولة.
- صحف المعارضة : "سحب القضية رقم ١٣٣ لسنة ١٩٨٨ من رئيس نيابة مصر الجديدة وصدور قرار بحفظها "

- حظر النشر في قضية الريان

مجلة روز اليوسف: الرئيس مبارك في لقائه بالصحفيين : (أعرف أن هذه الشركات تعطي بعض المسؤولين السابقين نسبة فوائد على إيداعاتهم بما يزيد على ٧٠ بالمائة وتتدرج هذه النسبة حسب أهمية المسؤول).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من الفصل الثامن عشر (الأخير في الفصول -الوثيقة) :

- الرئيس مبارك يحدد معالم مرحلة جديدة تواجه التحديات بالعمل والأمل ويقول: حققنا مفخرة لشبعنا العظيم.
- ممثل وكالة التنمية الدولية الأمريكية أمام الكونغرس الأمريكي: "منذ يونيو ١٩٨٥ دخلت الولايات المتحدة مع الحكومة المصرية في حوار منتظم حول السياسات ويتم التشاور مع كبار المسؤولين المصريين مرة كل شهر على الأقل ويستكمل ذلك مع الوزارات المتخصصة "
- ارتفاع جديد في أسعار المواد الأساسية.
- إحصاء رسمي : "٥٠ ألف مدمن مخدرات في القاهرة وحدها "
- انهيار محصول القطن المصري.
- الطائرات الإسرائيلية تقصف مقر منظمة التحرير الفلسطينية في تونس.
- الملياردير السعودي عدنان خاشوقجي يرحب بمشروع مصطفى خليل وشيمون بيريز لتنمية الشرق الأوسط.
- اتحاد المقاولين العرب :"شركات المقاولات الأجنبية أخذت من المنطقة العربية ٤٥٠ مليار دولار "
- الشيخ محمد متولي الشعراوي في التلفزيون : "صليت لله شكرا يوم هزمت مصر في ١٩٦٧ "
- اتهام كمال حسن علي (رئيس وزراء مصري سابق) بإصدار قرارات اقتصادية استفاد منها شقيقه في صفقات المرسيدس والاتجار بالعملة.
- صندوق النقد الدولي: "استثمارات دول الخليج في الولايات المتحدة وأوروبا ١٨٠ مليار دولار "
- المدعي العام الاشتراكي يعيد للمرة الثانية تقدير أموال عصمت السادات الخاضعة للحراسة والمطلوب مصادرتها فتصبح ١٨ مليونا بدلا من ٧٨ مليونا.
- اتهام المدعي العام الاشتراكي السابق،... ، بتكوين ثروة طائلة من استغلال المنصب الذي شغله ثماني سنوات متصلة بنى خلالها مزرعة دواجن على مساحة ١٢ فدانا بأبوكبير شرقية، وفيلا فاخرة.
- المدعي الاشتراكي السابق، ... ، يتهم ٢٥ شخصية سياسية بينهم ٧ رؤساء وزارة ووزراء حاليين وسابقين و ١٢ عضوا في مجلس الشعب وعدد من المحافظين الحاليين

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والسابقين بأنهم استغلوا نفوذهم لإثنائه عن التحقيق في انحرافات شركات توظيف الأموال.

- مليون وأربعون ألف هارب من تنفيذ أحكام قضائية.
- ٦ رؤساء مجالس إدارة في القطاع العام أمام محكمة أمن الدولة العليا لاختلاس وتبديد ٢٠ مليون جنيه.
- الصحف الأجنبية: "المال المهرب من مصر في بنوك الخارج يوازي خمسة أضعاف ديونها "
- ٣٠ ألفا من قوات الأمن المركزي تدهم قرية الكوم الأحمر وتحطم منازلها وتنهب محتوياتها وتعتدي على أهالي القرية بالكرابيج وتجبر أعداداً منهم على الطواف في طرقاتها بالملابس الداخلية ثم تقتاد نحو ألف من سكانها إلى معسكرات الأمن المركزي حيث استمر ضربهم بالعصي والكرابيج.
- ابراهيم نافع: "نحن والولايات المتحدة أصدقاء نؤدي دوراً هاما في استقرار منطقة بالغة الحساسية "
- وزير الداخلية: "الإمام الشافعي قال أنه يجوز للحاكم أن يقتل ثلث السكان في سبيل أن يحيا الثلثان في أمان "
- جريدة الأهالي: "عبدالهادي قنديل وزير البترول يمتلك جزيرة في اليونان وثروته تجاوزت ٢٠٠ مليون دولار "
- د. عاطف صدقي رئيس الوزراء: "نحن حكومة ولسنا عصابة "

مشهد التقابل

إن الأزمة الخانقة التي تحاصر الكيان الإنساني حتى تفقده إحساسه بالحياة، وهي أزمة الطبقة الوسطى في الفصول غير الوثائقية معبراً عنها بنموذج ذات وزوجها وأسرتها بشكل خاص، حيث يصادر ضغط الواقع المادي عليهم حاضرهم ومستقبلهم فتستلب ذات وزوجها على مدى عشرين عاما متصلة للوظائف والأعمال المضنية دون أن يتطور وضعهما الطبقي - يقابلها في الفصول الوثائقية مشهد انتقال الآلاف، وعشرات الآلاف، ومئات الآلاف، والملايين من الجنيهات المصرية من موقع الثروة الوطنية: العامة والمال العام: توزيعه العام: العادل - من موقع الحق العام إلى جيوب وخزائن قادة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الدولة ومسؤوليها الكبار وفئات اجتماعية لا تشكل الأغلبية السكانية تتقاسم الثروات مع الدولة لاعتبارات سلطوية واقتصادية أوجدتها أو غذتها الدولة نفسها بما ينسجم وتوجهاتها.

شكل التقابل

الحياة هذه التي نحياها، أو نحلم بها، لا يمكن أن تقبل دون رؤية شاملة، وقد يقلب جحيمها سعادة أو قبولا عند تشكل تلك الرؤية. الرؤية هي المنظار البانورامي البديل للنظرة الضيقة للذين لا رؤية لهم. هي المخرج من مأزق الحياة، وقد يكون لعمقها أحيانا الدور في خلق شعور بالتعاسة لأنها تكشف عن الحقائق .(١)

وفي رواية "ذات" إذ يجمع الشكل الروائي القائم عنصري البناء الشكلي الوحيدين (السرد والوثيقة) في فصول متقاطعة متتالية، فإن التصالح القائم سرديا عبر التقاطع المتتالي لعنصري البناء الشكلي الحواري الثنائي، يفضي إلى علاقة ثالثة تتحقق عبر مسافة دلالية كلية تربط عنصري البناء في الفضاء السردي والدلالي لتحققهما القائم، تلك المسافة التي تعرف برؤية الرواية الكلية أو إيديولوجيتها ويكمن فيها الدلالة الكلية الكبرى للعمل، وباعث الفعل السردي برمته. لقد كانت المسافة تلك في الرواية "ذات" مسافة ثنائية ضدية: الطبقة الوسطى/ الدولة. وبما أن الطبقة الوسطى أكبر طبقات المجتمع المصري والعربي عموما فإن الثنائية تتعمق إذا استبدلناها بـ : المجتمع/ الدولة الثنائية المتحققة في شكل ممكن في النطاق الوطني المصري، حيث الشكل الممكن مختل ومتفجر جراء تخلي الدولة عن القيام بمسؤولياتها العامة ومهامها الموضوعية في البناء الاجتماعي الحضاري العصري، وقيام القوة الاجتماعية الحقيقية المسيطرة على الدولة غير الديمقراطية –وهي المؤسسة العسكرية– بتحويل موقع السلطة الأكبر وشكل الدولة (الذي هو شكل موضوعي لرعاية الصالح العام والتقدم به) إلى موضوع للإثراء والنهب الفاحشين، بالتعاون مع بقية العناصر الكبرى في مؤسسات الدولة وبعض الفئات الاجتماعية ذات المصلحة حيث تثري الفئات الأخيرة وتنهب بإرادة وإذن الدولة ولا تستطيع الإثراء الفاحش والنهب دون تلك الإرادة. بذلك... تعتدي فئة اجتماعية على حق بقية الفئات الاجتماعية في نوعية الحياة

---

(١) وليد اخلاصي، المتعة الأخيرة: اعترافات شخصية في الأدب، ط١، دار طلاس، دمشق، ١٩٨٦، ص٩٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فتتموضع الأغلبية السكانية في موقع معاناة طبقية رهيبة وتتشكل مسيرة حياتهم الكلية من حلقات متصلة مضنية من محاولات عملية غير مجدية لتجاوز الموقع الطبقي الطاحن، فتستلب إنسانيتهم في أقدس أسرارها -السعادة التي لا تتحقق إلا عبر الإطلاق الحيوي لكل أبعاد الذات، وتوسيع مساحة حركة الأنا وسيادتها.

إن ثنائية المجتمع المدني/ الدولة الوطنية -وهي ذات الثنائية التي يعاني منها الوطن المصري والعربي المعاصرخارج المرجعية الروائية- تعد من أعقد أشكال الصراع الاجتماعي؛ فالفئة المتسلطة تملك قوة رهيبة، هي قوة الدولة ومؤسساتها، ممّا يصعب على المجتمع المدني بمختلف طبقاته المعانية، الفكاك من سطوة جبروتها. وهو ما نراه في مصر وبقية البلدان العربية في مشهد مأساوي. * ١)

الاتهام لا يستثنى أحداً

بقدر ما كان السرد بمستوييه يعمق الوعي والشعور بثنائية المجتمع/ الدولة ويبطن اتهاما كبيرا محزنا للدولة بالمسؤولية عن إعاقة التقدم الاجتماعي، وعدم صهر كل فئات المجتمع في علاقات متكافئة، متوازنة، حدائية، وعدم ربط مصر بدورها القومي العربي، وإخضاع مصر ثروة ودوراً لعلاقات تبعية عالمية قضت على الحد الأدنى للحركة المستقلة للدولة المصرية. - بقدر ما كان يقول في الفصول غير الوثائقية قولاً مهماً في سياق الصراع المتشكل في رواية "ذات"؛ لقد كان يدخل إلى القيم المحركة للطبقة الوسطى واتجاهاتها العامة -التي ترتبط ضمن الدلالة الكلية للرواية بدورٍ ذاتي آخر في الخلل الاجتماعي المتغلغل في البناء الاجتماعي المصري الكلي، هو دور الطبقة الوسطى المصرية أو المجتمع المصري، يوازي الدور الذاتي الأول الذي تؤديه الدولة الوطنية في الفساد والعجز التاريخي حيث يشترك الدوران في صناعة العجز التاريخي.

---

* تؤيد كثير من الدراسات الاجتماعية العربية المعاصرة البارزة مثل: المجتمع العربي المعاصر د. حليم بركات، الدولة التسلطية في المشرق العربي المعاصر د. خلدون النقيب، الدولة عدوّ الأمة د. برهان غليون، ... ما ذهبت إليه هذه الرواية في تشكيلها للصراع (مجتمع/ دولة) وحدود دور كل منهما وتحميل المسؤولية الأكبر للدولة. إذ تتحدث تلك الدراسات صراحة عن الصراع الاجتماعي العربي الداخلي في العقود الأخيرة باعتباره صراعا بين مؤسسة الحكم والمجتمع المدني، وتسند إلى الأنظمة الوطنية المسؤولية الرئيسية عن استمرار حالة التخلف الحضاري الشامل للمجتمعات العربية.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الشامل في مصر. وقد تحقق الدور الذاتي الثاني للمجتمع المصري خارج مجتمع جهاز الدولة في صناعة تخلفه من خلال انخراطه المجنون في علاقات رأسمالية الدولة التابعة (الدولة الوطنية) بقيمها الاستهلاكية، والانتهازية، وفساد آليات عملها، وبتغييب دور المواطن في صناعة السياسة الداخلية والخارجية، والتنكر للقضايا القومية حيث عني السرد برصد ذلك الانخراط وتعميق الوعي عليه إلى درجة عالية هي تكثيف فكرة الاستلاب الكلي للقيم الاستهلاكية والمظهرية من قبل المواطن عبر وصف أبدعه الراوي وأطلقه على كل شخوصه الروائية هو (ماكينة البث). حيث يتضمن هذا الوصف اختزالا شديداً لإنسانية الشخصيات يحولها إلى كائنات ذات بعد واحد لا يمت إلى الجوهر الإنساني بصلة. وقد كان مشهد الموظفات في صحيفة حكومية مصرية تعمل فيها ذات المشهد الأساسي الذي ارتبط به مفهوم ماكينة البث وجسدته الموظفات بسلوكهن الذي يدفع القارئ إلى تقزز فعلي "الماكينات العاكفة على مضغ الفول والمخلل، ثم ابتلاع الشاي.. كانت من الكفاءة بحيث لم تتوقف عن البث لحظة واحدة:

الشامة السوداء: "سعد جاب لنازيتون يقرف".

وجه الأرنب (متثائبة): "سعد مين؟"

الشامة السوداء: "الله؟ جوزي".

وجه الأرنب: "آه صحيح. لازم جابه من الجمعية".

المنكبان العريضان: "مرة جبت من بورسعيد زيتون يجنن. غطا العلبة فيه كاوتش". *

من الزيتون إلى أسعار الجوارب، في بورسعيد أيضا، وأفضل أنواع أغطية المائدة، ثم أدوية الصداع وعسر الهضم، والاحتمالات المختلفة لتأخر الدورة الشهرية (بصوت خافت بعض الشيء ونظرات مختلسة إلى معسكر الرجال)، وسر الآلام المباغتة في منطقة بين المعدة والعانة، وكيفية إجبار الأطفال على شرب اللبن، والأزواج على استبدال الأنتريهات. والأصوات عالية، قوية النبرة، تقطر صحة وعافية، لا تعترف بفترات الصمت أو الراحة، وتربط بينها خيوط غير مرئية من الألفة والتعادي، تستبعد الغرباء، مثل ذات، التي شعرت فجأة برغبة في البكاء،.."(١) "كما أن الماكينات الشرهة ،

---

* استبدال أسماء الشخصيات بصفات أو تشبيهات مادية كتلك الموجودة، تعبير سردي آخر دالّ على محدودية الشخصيات وإمكانية اختزالها إلى كائنات تشبه الإنسان.

(١) صنع الله ابراهيم، ذات، ط١ ، دار المستقبل العربي، القاهرة، ١٩٩٢، ص ٢٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التي لا تتوقف فتحاتها عن الحركة بثا ومضغا وابتلاعا، لم تستطع صبرا على طريقة ذات في البث، فعندما شعرت هذه بأن الفرص المتاحة لها في انكماش مستمر، أخذت تتعمد الإطالة بقدر ما تستطيع، عن طريق المقدمات المستفيضة، وألوان التشويق الأخرى التي تعلمتها من المسلسلات التليفزيونية العربية. وبالإضافة إلى هذا، كانت ذات عاجزة، بطبيعة الحال، عن المساهمة في الموضوعات المفضلة لدى الماكينات وهي مشاكل السيارات والفروق الدقيقة بين أكثر من أربعين نوعا منها تجري في شوارع القاهرة، والسرمكة والمدارس الأجنبية وأسواق الخليج (الحرة وغير الحرة)، وعقود العمل في الخارج، وشرائط الفيديو، الخ. هكذا تدحرجت بالتدريج من خطوط البث إلى خطوط التلقي."(١)

❋ ❋ ❋

إن قابلية المجتمع المصري وطبقته الوسطى لتسلط الحكم واستبداده والأسباب العميقة للمرونة الشديدة التي أظهرتها الطبقة الوسطى تجاه نمط الحياة الجديد، هو السؤال المهم الذي عني السرد بالعثور على اجابته في سياق محاولته فهم دور ذاتي سلبي للمجتمع المصري خارج المجتمع السياسي.

فمن خلال الغوص في الحياة العائلية والداخلية الحميمة للشخصيات، ومن خلال رسم لوحات اجتماعية ممثلة للحياة المصرية في ممارستها الجماعية: الموظفات في المؤسسة الصحفية الحكومية التي تعمل فيها ذات حيث كشف السرد عبر علاقاتهن الداخلية وحواراتهن نمط حياتهن الراكد واتجاهاتهن الاستهلاكية والسكونية (رأينا أمثلة عليها فيما سبق)، الموظفين في جمرك الإسكندرية حيث كشف السرد من خلال معاملة تخليص مقدمة من أصدقاء ل ذات نظام تسيير إداري واجتماعي خطير، وتمضي الرواية هكذا، كشفا للجوانب السلبية في السائقين والبائعين وعموم الموظفين (سلوك عبد المجيد الاستسلامي) والمتدينين... -يبرز السرد شبكة تسلطية كاملة ينتجها المجتمع المدني نفسه ويمارسها على نفسه:

---

(١) صنع الله ابراهيم، ذات، ط١ ، دار المستقبل العربي، القاهرة، ١٩٩٢، ص ٩٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تسلط الرجل على المرأة

ظهر شكله البارز في علاقة عبدالمجيد زوج ذات مع زوجته التي تسلط عليها تسلطا كاملا لا جزئياً، فقضى على فرديتها، وأربك تماسكها النفسي والمعنوي العام وهو المعطى الذي استثمره سلباً كثير من الأشخاص المتعاملين مع ذات أهمهم زميلاتها في العمل. وقد بدأت مسيرة الزوج في التسلط على "ذات" بدايتها الطبيعية؛ أي باعتبارها امتداداً للمظلة الأبوية في المجتمع العربي المصري حيث استأثر عبدالمجيد بالقرار الاسري كلية وكان يبعد "ذات" وأحيانا يزجرها عن إظهار آرائها العامة والخاصة، ثم تطور الأمر إلى إرهاب يمارسه عبر القدرة التوجيهية والرمزية للعين. هكذا منعها من الخروج للعمل ثم أمرها بذلك فيما بعد، ومنعها مواصلة تعليمها الجامعي. لم يمنع الكم التسلطي السابق حدوث انفجار هائل في لحظة تاريخية بعد سنوات من الحياة المشتركة – وقفت فيها ذات أمام زوجها تحاكمه وتتهمه وهو مذهول من ذاكرتها الحديدية، وكلمات الاتهام: "الهدم" "التخريب" "الأنانية" "البلادة". الأنانية لأن الفرصة أتيحت لذات كي تكمل التعليم الجامعي ولم تتح لزوجها أو لم يسع هو إلى إتاحتها فمنع زوجته عن أخذ فرصتها، والبلادة لتقاعس عبدالمجيد عن "السفر إلى الخارج لتحسين حياتهم التعسة ".

كذلك ظهر تسلط الرجل على المرأة بشكل بارز في علاقة الشنقيطي بزوجته سميحة، وهما جيران "ذات"، حيث كان الضرب الوحشي جزءًا أساسيا من علاقته بها.

تسلط القوي علىالضعيف

مثاله البارز موقف زميلات ذات في العمل منها، إذ كنّ طوال السيرورة السردية يقمعن شخصيتها بالكامل ويعتمدن المقاطعة قاعدة في التعامل معها لا لشيء إلا لضعف شخصيتها، ونقائها، وعدم قدرتها على مجاراتهن في البث (أحاديث النساء عن الاستهلاك والأسرة)، ولظنّ أنها شيوعية. هكذا كان الوضع الناجز باستمرار لدى ذات نتيجة التعامل السابق هو الالم النفسي الرهيب والبكاء.

– تسلط فئات المجتمع المدني المختلفة على بعضها

مثل تسلط السائقين على الركاب باستغلالهم ماديا، تسلط الموظفين في المؤسسات العامة والخاصة على المتعاملين والمراجعين باستغلالهم ماديا دون حق او إذلالهم بإضاعة وقتهم، وإرهاقهم، وإشعارهم بموقع السلطة وهو ما حدث أيضاً مع ذات وأصدقائها في

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ذهابهم لتخليص سيارة ومقتنيات من جمرك الإسكندرية، وهو ما حدث عندما ذهبت ذات وزميلتها إلى مؤسسات الدولة للشكوى على طعام فاسد – ناهيك عن لا جدوى الشكوى (أخذ وصف الرحلتين السابقتين فصلين كاملين من الرواية يشعر فيهما القارئ بالألم الحقيقي من السرقة والإذلال والبيروقراطية – واليأس من تحصيل مؤسسات الدولة لحقوق المواطن). كذلك تسلط البائعين على الزبائن مثل رفض بائع أن يعيد لعبة ابن ذات رغم أنها معطوبة، والكثير من النماذج.

– تسلط القيم الاجتماعية الأساسية القائمة على أفراد التنظيم الاجتماعي.

مثل قيم القهر والكبت الجنسي التي احتلت حيزا لافتا في العمل السردي من أوله إلى آخره، حتى يدفع السرد القارئ نهاية إلى الأسف على تخلف الأمة العربية في فهم الحاجة الجنسية باعتبارها موقعا (دوراً) في الممارسة الإنسانية الأساسية، يؤدي قمعها والتخلف في أدائها إلى التأثير سلبا على تكامل الأدوار الاجتماعية وتوازنها. حيث شكل السرد وعيه على البعد الجنسي من خلال محاور: الختان، الحرمان الجنسي، السلوك الجنسي غير السوي (عبد المجيد يستمني وهو متزوج – ذات تتحمل جزءًا من المسؤولية) التي تمثلت في مسيرة ذات وزوجها أكثر من غيرهما.* ١)

ومثل التمييز الديني: حادثة مقاطعة العاملات في الصحيفة الحكومية لزميلتهن الجديدة لكونها نصرانية.

ومثل الاستبداد الديني: يتمثل في أقوال وممارسات قادة دينيين مسلمين وجماعات إسلامية في السرد–الوثيقة :

– الجماعات الإسلامية تقتحم مقر جمعية "خلاص النفوس" المسيحية بوسط مدينة أسيوط وتحطم محتويات مكتبتها وجهازي تليفزيون وفيديو.
– أفراد الجماعات الإسلامية في أسيوط ينزعون لحية مواطن مسيحي.

---

* انعدام الإشباع الجنسي أو على الأقل حد أدنى حقيقي منه في المجتمعات العربية نتيجة عدم تبني القيادة السياسية والاجتماعية في المجتمعات العربية لمشروع تحرير الجنس (الإنسان) سبب رئيسي من أسباب تخلف الفرد والمجتمع العربيين. إذ بات مؤكداً أن مشروع تحرير الجنس (أحد أهم ما يمتلكه الإنسان) هو أحد الضرورات الموضوعية التي بدونها لن ينجح التحول المجتمعي الحضاري التاريخي عربياً.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- الشيخ متولي الشعراوي: "المرأة اضطرت للخروج إلى العمل لأن الرجولة للأسف أصبحت خائرة "

- وزير الداخلية: "الإمام الشافعي قال إنه يجوز للحاكم أن يقتل ثلث السكان في سبيل أن يحيا الثلثان في أمان "

هكذا تكون الشبكة المذكورة هي البنية العميقة المنتجة لتخلف الدور الذاتي للمجتمع المدني المصري الذي يقمع ويحاصر إنسانه قبل أن يقمعه دور ذاتي ثان هو الدولة التي هي مظهر لبنية مجتمعية ولسيرورتها التاريخية!

الوثيقة : منطق وحدود

يلاحظ في هذه الرواية أن أحداثا كان يتحدث عنها السرد الوثيقة كانت توجد في السرد غير الوثائقي بشكل أو بآخر، مثل أن تخوض الشخصيات تجربة عملية مع موضوع أو ظاهرة ما أو أن تتحدث عنهما الشخصيات باعتبارها جزءًا من الاجتماعي المعيش. فكأن السرد غير الوثائقي يريد أن يؤكد ما يرد في السرد الوثيقة، وأن تدفع السيرورة السردية في المستوى السردي غير الوثائقي شبهة الدعاوية والتوجيه الإيديولوجي المباشر الكامنة وراء جهد الاختيار والتنظيم في الفصول الوثيقة لتؤكد صحة النسق الصراعي الذي تشكله رواية ذات : المجتمع المدني/الدولة. ففضيحة مدير أحد البنوك الذي هرّب "٦٠٠ مليون دولار إلى الخارج تحت سمع السلطات وبصرها، بل وبموافقة رسمية من البنك المركزي.. دون أن يغفل الدور الذي لعبه عم لعبدالرحيم كان وزيرا للري ثم رئيسا لبنك المهندس"(١) هزت عبدالمجيد زوج ذات وبقية العاملين في البنك معه، وضغطت على أعصابه وأعصابهم التي لم يكن من السهل عليها (على الأعصاب) تحمل سرقة كهذه بموافقة رسمية مع بقاء العاملين المقهورين طبقياً صامتين راضين بدور الأعمى المسالم. فكان السرد يأتي بإشارات صريحة حول تفكير العاملين بمغامرات من مثل مغامرة مدير البنك، لكنهم في النهاية كانوا يحجمون، لكبر المغامرة ومتطلباتها الإسنادية الباهظة (كبارات الدولة و/ أو كبارات الاقتصاد).

---

(١) صنع الله ابراهيم، ذات، ط١ ، دار المستقبل العربي، القاهرة، ١٩٩٢، ص ٩٤، ٩٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إن نموذج الفضيحة-الجريمة بعناصرها الفاعلة الظاهرة والكامنة وآليات تمريرها إداريا وقانونياً، تتكرر عشرات المرات في الفصول الوثيقة لتؤكد بالتكرار وتطابق النموذج مسؤولية الدولة الأساسية عما يجري - انطلاقاً من قدرة الدولة الطبيعية على إعادة تشكيل حركة الأموال والاقتصاد دون إبقاء ثغرات قانونية وإدارية يمكن من خلالها حدوث سرقة أو تمرير سرقة. وظاهرة شركات توظيف الأموال الإسلامية علامة بارزة في السياق السابق. وقد اشتملت السيرورة السردية غيرالوثائقية على اتصال وثيق للشخصيات بالظاهرة المذكورة وغيرها كالفساد الإداري والوظيفي والصحي، والتراجع التعليمي.

إلا أن نظرة شاملة لمحتوى السرد الوثيقة في كل فصوله ترينا اتجاه الوثيقة نحو فضح الدور الكلي للدولة إزاء كل قضايا المجتمع مثل: حقوق الإنسان وقيمة الإنسان، الدور السياسي الخارجي لمصر، الديمقراطية داخل مصر، حقيقة العلاقة الاقتصادية والسياسية بين مصر وأمريكا، دور ظاهرة (الصحوة الإسلامية) في كل ما يجري.

إذ يقدم السرد الوثيقة نماذج واقعية في مصر تفضح موقف الدولة السلوكي والأخلاقي تجاه الإنسان في مصر، فيما هو اتجاه من السرد الوثيقة نحو إثبات شمولية الإدانة للحكم المصري وتوجهاته. وربما تكون هذه الأدلجة العالية في الفصول الوثيقة، وعبر تعالقها الشكلي الدلالي مع الفصول السردية، اتجاها من الرواية-الإيديولوجيا نحو تفجير كل مساحات التصالح القائمة بين المجتمع والدولة في مصر، انطلاقا من رؤية إبداعية-إيديولوجية تتمكن من إظهار كلية فساد نموذج الدولة القائم، يعززها شكل نهاية السرد غير الوثائقي*؛ إذ تعني النهاية استمرار الوضع القائم من طرف الدولة بالذات وتشيع جوا يائسا تاما من موقفها العام. حيث تكتشف "ذات" أن السمك الذي اشترته لطعام الغداء من كشك للقطاع العام فاسد تماما (مدة صلاحيته منتهية) ولصقت ورقة جديدة على الورقة الأصلية لتاريخ صلاحيته، ونقعت الأسماك في الخلّ لإخفاء التغير في طعمها "انحنت على الحوض وهي تتنهد في يأس. ماذا تفعل الآن؟ تذهب إلى الكشك تحت الشمس اللاسعة وتحاول استرجاع نقودها؟ وإذا رفضوا تذهب إلى المكتب إياه لأداء

---

* النهاية في الرواية ليست مجرد ختام لأحداث القصة، بل هي التنوير النهائي.
إدوين موير، ت: ابراهيم الصيرفي، بناء الرواية، بدون طبعة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، بدون تاريخ نشر، ص٣٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واجبها ومنه إلى مركز الشرطة، فالتصحيح وهمت والماكينات التي ستسخر منها ثم تقاطعها؟ تصورت تعليق أمين الشرطة" "سمكة فاسدة؟ يبقى متكليهاش". معه حق. فالموضوع تافه. شديد التفاهة. شعرت بالدموع تتجمع في عينيها، فألقت بالسمكة والرنجة في صفيحة القمامة، وتحاملت على نفسها، فغادرت المطبخ واتجهت بخطوات متثاقلة إلى المبكى: المرحاض." (١)

ينبغي الإشارة إلى تكرار حادثة الطعام الفاسد في السيرورة السردية غير الوثائقية للرواية في فصل كامل يسرد الخطوات الإجرائية البيروقراطية الرهيبة لإنجاز شكوى كهذه، دون أن تسفر عن نتيجة إيجابية – إن تكرار النموذج ذاته في النهاية مع الإحجام اليائس عن فعل الشكوى هذه المرة، إعلان عن استمرار الأزمة ذاتها، أزمة دولة لا تنتصر لمجتمعها ولا تهتم بإنسانها، يظل فيها المجتمع الطرف العاجز عن المقاومة والانتقام .

- النهاية وأبعاد إنسانية.

إن نهاية الرواية ببكاء ذات قهراً ينبه إلى تميز هذا العمل الروائي بحضور كميٍّ لافت جداً للمشاهد الإنسانية، والانفعالات الإنسانية، والأبعاد الإنسانية، إلى الحد الذي يشعر معه القارئ بأنها الحافز وراء الفعل السردي برمته، حيث تقوم المساحات الإنسانية المذكورة بتعميق الوعي على إنسانية الإنسان واعتبارها المنطلق والغاية على الإطلاق والتأكيد على اللاغفران لكلّ من يتجاوزها. بل أكثر من ذلك ترجع قيمة الرواية إلى مصدرين معا: النسق الشكلي، والأبعاد الإنسانية حيث يتفاعل كل منهما مع الآخر على حساب القارئ المسكين الذي لا يفتأ ينفعل انفعالات مأساوية عالية جداً* وهو يرى:

- عبدالمجيد يسحق شخصية ذات حين لا تملك غير إطراق الرأس أو إخفاض العينين أو البكاء في المرحاض أو الارتباك العصبي أو الضعف النفسي الذي تستغله زميلاتها في الصحيفة إلى أبعد حد – فتبكي ذات الطيبة من أول السرد إلى آخره!

---

(١) صنع الله ابراهيم، ذات، ط١ ، دار المستقبل العربي، القاهرة، ١٩٩٢، ص ٣٥٢.

* تمنحنا الرواية المعاصرة الاحساس بضرورة الانسان والتغلب على كل ما يواجهه. د. حسين جمعه (مترجم)، نظرات في مستقبل الرواية، ط١، منشورات رابطة الكتاب الأردنيين، عمان، ١٩٨١، ص٦٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- الحزن العميق الذي تعيشه ذات في عالمها الداخلي بسبب تردي مستواها الاجتماعي وحاجة أولادها للتعليم والغذاء ونتائج المقارنة بين ما عندها وما عند الأسر الصديقة التي تأتي لزيارتهم.
- الحرمان الجنسي الذي تعرض له عبدالمجيد سنوات شبابه يسبب تذكره المتكرر عليه حزنا شديداً له وحسرة.
- احتجاج ذات على الإطاحة بصورة جمال عبدالناصر من غرفة الأرشيف الذي تعمل فيه وحزنها الشديد بعد الإطاحة بها، وبعد نظرات الاتهام من زميلاتها اللواتي (اتهمنها) بأنها شيوعية.
- الآلام العميقة والإحباطات المريرة التي تتفجر في "ذات" (المواطنة) لكونها جزءًا من نظام اجتماعي متخلف تخلفاً شاملاً في كل مؤسساته، تضطر ذات إلى التعامل اليومي معه: المواصلات، المدارس، المعاملات الرسمية، الطعام، المستشفيات،... وهو (النظام) المسؤول أساساً عن ترديها الطبقي والثقافي والمعنوي العام.

يبقى الاسم المثير لـ (بطلة) الرواية "ذات" سؤالا يجد جوابه في معنى العموم الذي يتضمنه وتؤكده الرواية في ذات هي النموذج النمطي للشخصية المصرية-المرأة (هو نموذج ايجابي كما رأينا ويتجه الى إعطاء صورة البطل للمرأة المصرية من الطبقة الوسطى – دون الرجل)، وفيها معالم قد تكون كثيرة من الشخصية النمطية المصرية – الرجل، فـ "ذات" هي ذات المرأة المصرية عموما، وذات الأغلبية السكانية التي تتميز بالبساطة والفطرية والجوهر النقي. وهي سمات عني السرد بإظهارها واللفت إليها، فالسرد يكرر مثلا "ذات الطيبة فعلت كذا أو أحزنها كذا أو لم يعجبها كذا"، كما يكشف عن "ذات" خالية من أية عدوانية أو سوء نية، بل يعلن اتجاهها الإنساني العميق والاجتماعي السلوكي الشامل نحو الخير والمصلحة الكاملة لأفراد أسرتها، ولكل الناس الذين تعرفهم أو تتعامل معهم. * – إن "ذات" (مَنكّرة) تساوي (=) قصة المرأة العادية من الطبقة الوسطى ومجتمعها (الأغلبية) في مصر، تحيا ويحيا نزيفه اليومي.

---

* ثمة مقالة قصيرة لـ علاء الديب عن هذه الرواية يتحدث في جزء منها عن دلالة اسم الرواية فيقول: هي أولا أنثى، وذات المرأة، غالبا سرية غامضة. ذات المرأة غالبا ما يقع عليها قهر مضاعف.. بالإضافة إلى ذلك فإن النظرة العصرية لفن القص هي نظرة ذكورية تماما. الكاتب الذكر يكشف لنا ذات المرأة، يعريها في قسوة وإصرار فماذا يجد. الذات – بدون أداة التعريف – مثال نموذجي للفراغ الداخلي، للعجز، للضعف، للتردد، لاستحالة الوجود الإنساني في هذا الواقع.
علاء الديب، "ذات" أو البحث عن واقعية قادمة، مجلة العربي، ع٤١٢، مارس ١٩٩٣، ص ٩٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إيديولوجيا الرواية

يتولد في سياق النسق الصراعي الذي صنعه الشكل الروائي سؤال عن اتجاه الوضع الاجتماعي القائم نحو تغيره، والإمكانات التي كشفها السرد بهذا الصدد، أو الملامح التي ربما احتوى عليها. إن النتيجة العامة في هذا السياق سلبية، فهل يكفي الخير الكامن في شخص "ذات" وتعاملها النقي مع الغير للرهان على عملية تغيير اجتماعي شامل، هي المهمة التاريخية للطبقة الوسطى في مصر والعالم العربي عموما تجاه-ضد النظم القائمة؟ كذلك فإن وعي "ذات" على انسداد إمكانية صعودها الطبقي إلا عبر السفر إلى الخارج أو الإرتشاء وسرقة المال العام، وهو أمر محفوف بالمخاطر، لم يكن عاملاً في توسيع وعيها الاجتماعي الطبقي باتجاه يهدد النظام القائم ولو على مستوى الوعي على شمولية فساده ومسؤوليته. لكن -ومن منظور آخر- ربما أراد الفعل السردي أن يمنحنا المعطيات الشكلية، والإمكانات العامة والخاصة (المذكورة) للشخصيات باعتبارها إرهاصات الوعي الممكن الذي قارفه الموقع السردي على الانسدادات التامة للعملية الاجتماعية وتأزمها الشديد الذي سيظل يبحث عن زمن انفجاره. *

أما الظاهرة الكبرى التي تعرف ب (الصحوة الإسلامية) وتكتسح مصر وتمثل جهداً تأطيريا عاما من طرف المجتمع المدني تجاه موقع معارضته الطبقي والإيديولوجي للطبقة الحاكمة والفئات الاجتماعية المتحالفة معها والمرتبطة بها، ما هو موقعها في الإيديولوجيا السردية؟

يصعب تعيين الموقع المذكور على نحو ترابطي سردي شبه آلي، لكن الإشارات المتعددة في السرد والوثيقة كافية لتحقيق الدقة في موقعة الظاهرة المذكورة التي يرد الحديث عنها والوعي عليها في السرد كما في الوثيقة عبر نقدها والتخوف منها والسخرية منها. وهو وعي ناقد متخوف وساخر محق في كل أشكال وعيه السابقة على الظاهرة لأنه يملك المعطيات الكافية لتثبيت أشكال الوعي السابقة، دون أن يقول إنها يجب أن تعمم

---

* "الروائي صاحب مفهوم عن العالم، وهنا اللقاء لازم بين الرواي والإيديولوجي، وفي تطور المجتمعات وانتقالاتها عبر الصراع من حال إلى حال أخرى تساعد الأعمال الفكرية والأدبية في تسريع هذا الانتقال وحسمه لمصلحة المستقبل". حنا مينا، هواجس في التجربة الروائية، ط١، دار الآداب، بيروت ، ١٩٨٢، ص١٤٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

على كل الظاهرة. فالمتدينون في الرواية بأغلبيتهم يمثلون نماذج انتهازية أو متسلطة أو متخلفة ثقافيا أو مدجنة في موقعها الاجتماعي. نذكر البائع المتدين جدا الذي رفض إعادة لعبة طفل ذات رغم أنها معطوبة، والمصريين المتدينين العائدين من الخليج فرحين بما حصلوا عليه وفرحين بالخليج (المؤمن)، وشركات توظيف الأموال... كذلك الإشارات المتعددة إلى أهمية وخطورة دور المكون الديني في الحياة الاجتماعية المصرية، وهي إشارات تخفي إدانة لهذا المكون باعتباره عامل إعاقة أمام حركة اجتماعية ثورية ضد القيم المتخلفة والمستبدة التي تحكم النظام القيمي للمجتمع المصري وتؤثر على اتجاهه نحو تحرير ذاته من التسلط التاريخي للفئة الحاكمة وتحرير كيانه الإنساني من قيوده الثقافية الذاتية.

فكأن الرواية في النسق الذي شكلته والسمات الاجتماعية والفردية لشخوصها تفتح وعيا أوسع على عملية التغيير الاجتماعية من خلال ربطه بالطبقات، ورهانه على إنسانية الإنسان وحاجاته، وهو الأكثر إقناعاً والضمان على مستوى الوعي الإبداعي في هذه الرواية بخروج موقع المعارضة المعقود عليه الأمل من نطاق تسلط البنية الدينية وقيمها، إذ يمكن أن يكون الموقع المذكور موضوعا للأدلجة والاستغلال من طرف التسلط الديني -دون تسفيه المنطلقات الموضوعية للمعارضة الدينية وإمكاناتها التغييرية.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مخطط توضيحي لرواية "ذات"

أ : زواج ذات

ب: قتل ذات التاريخي

ذات * : لسم امرأة من الطبقة الوسطى

الأنظمة الوطنية الثلاثة التي حكمت مصر منذ انتهاء الاستعمار البريطاني.

خ ت : حركة تاريخية

خ س : خارج السرد

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تميز صنع الله ابراهيم منذ عمله الإبداعي الأول "تلك الرائحة" باتجاهه التجريبي شكلا وموضوعاً، واستمر في اتجاهه التجريبي في أعماله التالية كلها، حتى اقترن التجريب الروائي العربي المعاصر بعدد محدود من الأسماء كان في طليعتها صنع الله ابراهيم. وظهر للقراء والنقاد أن تجريبه هو إبداعه الذي يملك شرعية الإبداع، بمعنى أنه تمكن من إنجاز إضافة معرفية وفنية من خلال ما أبدعه.

ويقتضي السياق السابق أن نستدعي من الذاكرة ما عرف عن صنع الله من اقتناع بالإيديولوجية الماركسية ونضال في سبيلها، أي أننا امام حالة يتوقع إزاءها أن تسود الرؤية الاشتراكية في إنتاجها الروائي، إلا أن ما حكم رؤيته الروائية الكلية كان شيئا آخر، إذ تشكلت رؤيته الروائية من تماسكات ذاتية مستندة إلى أشكال وعي لا تنتمي إلى مرجعية ايديولوجية بعينها، وتنتمي مقابل ذلك إلى الانسان في إطاره الأشمل هو الإطار الحر في ما ينتج من أشكال لغوية–معرفية قادرة بذاتها على تقديم تفسيرات محددة للمرئي الاجتماعي. وهو ما يعني إدراك صنع الله لخطر ربط الأدب بمرجعية انتاج إيديولوجية بعينها، وللطابع الاستكشافي في النص الأدبي، وللعناصر اللاواعية التي تدخل في العمل ذي الطابع الإبداعي.

وفي فهم تطور التشكيل الفني في روايات صنع الله ابراهيم الخمس وقف الباحث عند كل رواية على حدة، لتعرف الوسيلة الأساسية في تشكيلها باعتبارها سردا فنيا، ثم لرؤية ما هو خاصّ وما هو عام في مسيرة التشكيل الفني للروايات.

في روايته الأولى (تلك الرائحة) كان وجود مستويين سرديين متقاطعين باستمرار لصناعة سرد كلي وسيلة التشكيل الفني الأساسية في تلك الرواية، ويعد السرد متعدد المستويات من الأساليب الحديثة والفاعلة في السرد، فقد تمكن صنع الله في (تلك الرائحة) عبر تقنية السرد متعدد المستويات من تحقيق تداخل الأزمنة والأمكنة في خط واحد من الوعي، هو تداخل واع (منظم) قادر بطبيعته على إثراء الرؤية وإثارة الجدل؛ حيث يمثل تعدد مستويات السرد شكلا فنياً لجمع عناصر التناقض أو التعارض معا من خلال الحوار أو الاحتكاك أو الاصطدام ... كما في (تلك الرائحة)، والجمع السابق هو البنية العميقة لأية رواية، فهو الحد الذي ينهض عليه فعل السرد ومغزاه.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في (تلك الرائحة) ايضاً، سادت لغة الدقة والكثافة في أسلوب الرواية كله، وهو أسلوب يمثل معطى تكوينياً في بنية السرد الكلي، أهميته في قدرته على رفع درجة التنظيم اللغوي للسرد، وهو ما ينعكس على دلالات السرد الجزئية والكلية فيؤدي إلى تجلية وتدقيق عاليين لتلك الدلالات.

في روايته الثانية (نجمة أغسطس) ظل المفتاح الأساسي في تشكيل السرد الفني الكلي تعدد مستويات السرد الذي توسع بشكل ملحوظ عن نظيره في (تلك الرائحة)، إذ ظهر في السرد خمسة مستويات سردية أنيط بها صناعة فعل السرد الكلي. وفي هذه الرواية بالذات تمكن صنع الله إبراهيم من توظيف تقنية السرد المتعدد إلى الحد الذي تحولت معه (نجمة أغسطس) إلى بحث معرفي حقيقي ذي أبعاد خلاقة حيث اشترك التاريخ الاجتماعي للبشرية (ممثلاً بالتاريخ الفرعوني) والتاريخ الجمالي لها (ممثلاً بفلسفة النحات مايكل انجلو الجمالية) في صناعة رواية معاصرة يتكون حاضرها بدوره من زمن حاضر (مستوى سردي مستقل) وزمن متذكر (مستوى سردي مستقل) وزمن مستقل آخر يتفلسف فيه السارد مخضعا التجربة الوجودية برمتها للتأمل.

ثمة عنصر فني ظهر في هذه الرواية ولم يظهر في الرواية السابقة عليها، هو التضمين الذي كان في (نجة أغسطس) مادة خاصة بتاريخ الفراعنة، ومادة خاصة بفلسفة مايكل آنجلو الجمالية، حيث ظهرت القدرة على توسيع الدلالات الكلية والجزئية وتعميقها من خلال التضمين من الخارج.

كذلك اتسم أسلوب الرواية بدقة وكثافة عاليتين، وهو أسلوب يفهم في ذات إطار نظيره في (تلك الرائحة).

في الرواية الثالثة (اللجنة) كانت المادة الاساسية في تشكيل السرد الفني هي الوثيقة الاجتماعية التاريخية، وهي اول مرة تظهر فيها الوثيقة في روايات صنع الله ابراهيم. وللوثيقة التاريخية منطقها القوي في حضوره وقوة إقناعه (فهو: تاريخ حقيقي + أجزاء منتقاة بعناية من الراوي) وعلى الرغم من تشكك القارئ ببعض الفقرات الوثائقية (تشكك بوثائقيتها) فإن درجة مطابقة محتواها للمرجع الإنتاجي التاريخي كافية تماما لتقبلها باعتبارها وثيقة.

ظهر عنصر فني ثان في هذه الرواية لم يوجد في الروايتين السابقتين، هو الأسلوب الساخر الحاد، الذي خفف بشكل واضح من وطأة الضغط النفسي الواقع على

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

القارئ بسبب إسناد الهيكلة الأساسية للرواية إلى الوثيقة، وهو ذات الدور الذي قام به عنصر فني آخر لم يظهر في روايتي صنع الله السابقتين، هو الطابع الدرامي المثير؛ المشوق، والغرائبي الذي سيطر على الأشخاص والاحداث.

ومع سيطرة لغة الدقة والكثافة ايضا على أسلوب هذه الرواية فقد ظهر الأسلوب الرمزي بشكل واضح خدم الرواية باتجاهين:

- فني، يغذي عنصر التشويق في الرواية، ويخفف من وطأة سرد معظمه وثائقي.
- دلالي، يبقي الفضاء اللغوي للرواية مفتوحاً على تأويلات واسعة ومتنوعة، وهو وضع إيجابي في هذه الرواية لأنه يدفع باتجاه الرواية- البحث الاجتماعي والمعرفي الذي تترك الرواية جزءًا منه للقارئ.

وفي رواية (بيروت بيروت) ظلت الوثيقة المادة الأساسية في التشكيل الروائي، إلا أن فجوة ملحوظة ظهرت في السرد الكلي بين المادة الوثائقية والمحتوى السردي في السرد غير الوثائقي، فكان السرد غير الوثائقي يتهمش تماما أمام نوعية المادة الوثائقية؛ اذ امتلكت المادة الوثائقية درجة عالية جداً من الإثارة لم يتحقق جزء يسير منها للسرد غير الوثائقي.

وظلت الدقة والكثافة سمتين أساسيتين للأسلوب.

في روايته الأخيرة (ذات) كان للوثيقة دور أساسي في بناء السرد الكلي، وقد نجح صنع الله في هذه الرواية في تحقيق التوازن التشويقي بين الوثيقة والسرد غير الوثائقي (عكس رواية بيروت).

لقد اختلف أسلوب صنع الله في هذه الرواية عن أسلوبه المتبع في رواياته السابقة، فلم نعد نشعر برهبة الدقة والكثافة ووطأتهما، وحل مكانهما اسلوب حر في اتجاهه العام؛ يتميز بالحيوية والإثارة والسخرية والفلسفة والرمز والقدرة على توليد الانفعال العالي للقاريء والعامية والتعليق على الأحداث والأشخاص وتحليل الشخصيات والاحداث...

ونخلص في رصد تطور التشكيل الفني لروايات صنع الله إلى ما يلي:

١- في كل رواياته استخدمت تقنية السرد متعدد المستويات، أحيانا بشكل مباشر، وأحيانا بشكل غير مباشر كما في (اللجنة) و (بيروت بيروت).

٢- في رواياته الثلاث الاخيرة كانت الوثيقة وسيلة أساسية في تشكيل العمل الروائي.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٣- في رواياته الاربع الاولى ساد أسلوب الدقة والكثافة.

٤- في رواية واحدة (نجمة أغسطس) لجأ السرد إلى تضمين نصي من خارج السرد، هو تضمين غير وثائقي.

٥- في روايته الأخيرة (ذات) ظهر اتجاه أسلوبي حر في اتجاهه العام، فهو أسلوب يتميز بكل شيء تقريباً.

٦- التحليل السيكولوجي المعمق للشخصية والحدث أحيانا، سمة قائمة في كل رواياته، وهي تتجلى بشكل خاص في السرد المميز طباعيا في (تلك الرائحة)، وفي القسم الثاني في (نجمة أغسطس)، وفي السرد غير الوثائقي في (ذات).

٧- في البعد المضموني للروايات:

في روايات صنع الله ابراهيم - باستثناء رواية بيروت بيروت- كان الصراع الأساسي في الروايات، بين الدولة الوطنية والمجتمع المدني. وهو صراع تتحمل الدولة مسؤوليته الأساسية ويكون المجتمع المدني فيه الضحية؛ ففي روايتي (تلك الرائحة) و (نجمة أغسطس) كانت دكتاتورية الدولة الوطنية السبب في أزمة المجتمع المدني الذي قبع أفراده في السجون السياسية. وفي روايتي (اللجنة) و (ذات) كان اختلال المكون الاقتصادي للدولة الوطنية -وهو اختلال ذاتي- سبب الأزمة الطبقية والنفسية الرهيبة لأفراد المجتمع المدني. في كلتا الحالتين ثمة اختلال رهيب في الصراع لصالح الدولة، مما يرفع درجة النقد الموجه إلى دور الدولة الوطنية في الإخلال بالتوازن الاجتماعي العام والمصلحة العامة، فالدولة هي من يحتكر المصادر الفعالة للقوة والسلطة في المجتمع.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المراجـــع

- إبراهيم السعافين، نظرية الأدب ومغامرة التجريب، ط١، دار الشرق العربية، القدس، ١٩٩٣.
- إدوار الخراط، مجلة فصول، أنا والطابو، مج١١، ع٣، ١٩٩٢.
- إمبرت، إنريك أندرسون، مناهج النقد الأدبي، ت: د. الطاهر أحمد مكي، ط١، مكتبة الآداب، القاهرة، ١٩٩١.
- أوكونور، وليام، أشكال الرواية الحديثة، ت: نجيب المانع، ط١، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨٠.
- باختين، ميخائيل، الخطاب الروائي، ت: محمد براده، ط١، دار الفكر، القاهرة، ١٩٨٧.
- برهان غليون، مجلة المستقبل العربي، بناء المجتمع المدني العربي، ع١٥٨، ١٩٩٢.
- بطرس حلاق، مجلة الباحث، الدائرة وتخلخلها في نجمة أغسطس، ع٤، السنة الأولى، كانون ثاني/شباط١٩٧٩.
- Pierre. V. Zima: L'ambivalance romanesque. (Proust. Kafka. Musil). Le sycomore. Paris. 1980.
- تودوروف، تزفتان، في أصول الخطاب النقدي الجديد، ت: أحمد المديني، ط١، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٧.
- جرييه، آلان روب، نحو رواية جديدة، ت: مصطفى ابراهيم، بلا طبعة، دار لمعارف، القاهرة، بلا تاريخ نشر.
- جمال الغيطاني، نجيب محفوظ يتذكر، ط١، دار أخبار اليوم، القاهرة، ١٩٨٧.
- جوزيف شريم، دليل الدراسات الأسلوبية، ط١، المؤسسة الجامعية، بيروت، ١٩٨٤.
- حسين جمعة (مترجم)، نظرات في مستقبل الرواية، ط١، رابطة الكتاب الأردنيين، عمان، ١٩٨١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- حليم بركات، المجتمع العربي المعاصر، ط٢، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٤.
- حميد الحمداني، بنية النص السردي، ط١، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩١.
- حميد الحمداني، الرواية المغربية ورؤية الواقع الاجتماعي: دراسة بنيوية تكوينية، ط١، دار الثقافة، الدار البيضاء، ١٩٨٥.
- حميد الحمداني، النقد الروائي والإيديولوجيا، ط١، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٠.
- حنا مينا، هواجس في التجربة الروائية، ط١، دار الآداب، بيروت، ١٩٨٢.
- خلدون النقيب، الدولة التسلطية في المشرق العربي المعاصر، ط١، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩١.
- سعيد علوش، الرواية والإيديولوجيا في المغرب العربي، ط١، دار الكلمة، بيروت، ١٩٨١.
- السعيد الورقي، اتجاهات الرواية العربية المعاصرة، ط١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٢.
- سماح إدريس، المثقف العربي والسلطة: بحث في روايات التجربة الناصرية، ط١، دار الآداب، بيروت، ١٩٩٢.
- سمير أمين، مجلة المستقبل العربي، الدولة والاقتصاد والسياسة في الوطن العربي، ع١٦٤، ١٩٩٢.
- سمير قطامي، مجلة دراسات/الجامعة الأردنية، المسرح السياسي والملحمي بين بريخت وسعد الله ونوس، مج٩، ع٢، ١٩٨٣
- شرودر، مورس، نظرية الرواية، ت: محسن الموسوي، ط١، مكتبة التحرير، بغداد، ١٩٨٦.
- شكري عيّاد، المذاهب الأدبية والنقدية عند العرب والغربيين، ط١، سلسلة عالم المعرفة (١٧٧)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٩٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- صلاح فضل، نظرية البنائية في النقد الأدبي، ط٣، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٧.
- صنع الله إبراهيم، بيروت بيروت، ط٢، دار المستقبل العربي، القاهرة، ١٩٨٨.
- صنع الله إبراهيم، مجلة الآداب، تجربتي الروائية، ع٢/٣، ١٩٨٠.
- صنع الله ابراهيم، تلك الرائحة، ط١، دار شهدي، القاهرة، ١٩٨٦.
- صنع الله ابراهيم، ذات، ط١، دار المستقبل العربي، القاهرة، ١٩٩٢.
- صنع الله إبراهيم، مجلة فصول، شهادة، مج١١، ع٣، ١٩٩٢.
- صنع الله ابراهيم، اللجنة، ط١، دار الكلمة، بيروت، ١٩٨١.
- صنع الله ابراهيم، نجمة أغسطس، ط٤، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٨٧.
- عبدالسلام المسدي، الأسلوبية والاسلوب: نحو بديل ألسني في نقد الأدب، ط١، الدار العربية للكتاب، ليبيا-تونس، ١٩٧٧.
- عبدالله إبراهيم، المتخيل السردي، ط١، المركز الثقافي العربي بيروت، ١٩٩٠.
- عصام الخفاجي، مجلة جدل، البرجوازية المعاصرة والدولة المشرقية -دراسة مقارنة لمصر والعراق، آب ١٩٩١، ص١٧٩.
- علاء الديب، مجلة العربي، "ذات" أو البحث عن واقعية قادمة، ع٤١٢، ١٩٩٣.
- فاليريا كيربيتشنكو، مجلة فصول، الرواية المصرية بعد الستينيات، مج١٢، ع١، ١٩٩٣.
- مارتين، س.ر، في تجربة الكتابة، ت: تحرير السماوي، ط٢، دار الكلمة، بيروت، ١٩٨٣.
- محمد بدوي، الرواية الجديدة في مصر: دراسة في التشكيل والإيديولوجيا، ط١، المؤسسة الجامعية، بيروت، ١٩٩٣.
- محمود أمين العالم، ثلاثية الرفض والهزيمة، ط١، دار المستقبل العربي، القاهرة، ١٩٨٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- محمود حنفي كسّاب، مجلة إبداع، "لجنة" صنع الله إبراهيم. وكبرياء الرواية، ع١، ١٩٨٥.

٤٤٦٧٢٧

- محمود غنايم، تيار الوعي في الرواية العربية الحديثة، ط٢، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٣.

- مصري حنوره، الأسس النفسية للإبداع الفني، ط١، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٠.

- موير، إدوين، بناء الرواية، ت: إبراهيم الصيرفي، بدون طبعة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، بدون تاريخ نشر.

- Mikhail Bakhtine: Le Marxisme et la philosophie du langage. Ed. Minuit. 1977.

- نبيل سليمان، مساهمة في نقد النقد الأدبي، ط٢، دار الحوار، اللاذقية، ١٩٨٦.

- نبيلة إبراهيم، فن القص في النظرية والتطبيق، ط١، مكتبة غريب، القاهرة، ١٩٩٠.

- نبيلة إبراهيم، نقد الرواية، ط١، مكتبة غريب، القاهرة، ١٩٧٧.

- وليد اخلاصي، المتعة الأخيرة: اعترافات شخصية في الأدب، ط١، دار طلاس، دمشق، ١٩٨٦.

- ويليك، رينيه، نظرية الأدب، ط٢، المؤسسة العربية، بيروت، ١٩٨٧.

- يمنى العيد، الراوي: الموقع والشكل، ط١، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ١٩٨٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ABSTRACT

Sonallah Ibrahim's Novels

An Analytical Study

Firas Isam Yousef Obeid

Supervised by

Prof. Dr. Ibrahim Al-Sa'afien

In this thesis, the critical approach, the sociology of narrative texts has been adopted in analyzing the Sonallah Ibrahim's five novels. The basic undertaking of this study has been to determine the relations within the novel structure, the mechanism that connects these relations and then to understand the ideology behind these novels. Throughout such an analysis, a consistent and conflicting pattern has become an overwhelming feature in four of the five novels. The poles of this pattern are represented in the state, on one hand, and in the civil society, on the other. In this pattern, the state excludes democracy, and it fails to build up a modern industrial economy that is parallel to that in the Western world. By and large, this means that the individual's income in the Egyptian society will continue to go down. Also, it means a great recession in the standards of civilization. This imbalance will, accordingly, be reflected on the Egyptians causing total frustration and exhaustion which negatively affect the individual's feelings towards life and affect this ability of production.

The analysis has also shown the negative role that is continuously played by the civil society through adopting backward cultural values. This role hinders the individual's development of thinking scientifically or having independent and socially free identities.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

In "Beirut Beirut", the approach adopted in its analysis has led to holding responsible for the civil war the partisan thought of the conflicting parties. Such thought was based on economical interest that were covered under a partisan facàd .

The methods used in developing narration and their connotative functions have been detected in this research. Such methods are the following : multi-level narrative technique, documents, precision and condensed writing. By there methods, the writer has been able to uncover the complex struggle of man nature of the natural.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit